مجتمع الإيمان ٩

كيف يكون ظلم المرأة ؟

الدكتور
محمود فؤاد الطباخ

دار الأعلام

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم : (٧١)

كيف يكون

ظلم المرأة؟

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

دار الأعلام

الأردن - عمّان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ مكتب ٦٠٥
هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ - ٠٦ خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ - ٧٩ - ٠٠٩٦٢
ص.ب ٩٢٧٥٦٣ عمّان ١١١٩٠ الأردن
E-MAIL : AL_AALAM@YAHOO.COM

مجتمع الإيمان
٩

٢١٠/٢
طمك

كيف يكون ظلم المرأة؟

الدكتور
محمود فؤاد الطباخ

دار الأعلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحابته الأوفياء الصادقين ، وعلى من دعا بدعوته وسار على نهجه إلى يوم الدين . وبعد :

فإن الحديث عن المرأة . . عن حقوق المرأة . . عن حرية المرأة . . عن تعليم المرأة . . عن عمل المرأة . . عن صوت المرأة . . عن لباس المرأة . . عن رياضة المرأة . . عن جهاد المرأة . . عن الزواج المبكر للمرأة . . عن عنوسة المرأة . . عن المشاركة في كثير من الأنشطة الفاعلة للمرأة . . عن . . عن . . .

هذا الحديث كان ولا يزال يشغل الأدباء والشعراء ، والمفكرين والفقهاء ، فيأخذ حيزاً كبيراً من اهتماماتهم ، في الصحف والمجلات ، والكتب والمقالات ، والتمثيليات والمسرحيات ، وفي برامج التلفزة والإذاعات . بل وفي كثير من اللقاءات والمنتديات التي يدور فيها الحوار بين المثقفين أو المثقفات في المدارس أو الجامعات . . .

ومع هذا كله ، لا تزال قضية المرأة من أخطر القضايا التي تستوجب تأملها والوقوف عندها ، لتجلية حقيقة ظلم المرأة ، سواء أكان ذلك في ظلمها من قبل الرجل ، أم كان في ظلمها هي للرجل ، وذلك بكل دقة وأمانة ، لتخليص الأسر من بؤسها وشقائها ، وتحرير الأمة من ضعفها وبلائها ، لأننا في كثير من الأحيان ونحن نسمع ونشاهد ما يتعلق بالمرأة نحس بنغمة التعصب والتقليد الأعمى ، يعزفها فريق على أوتار جهله وتخلفه ، وهو يظن أنه يبعث أعذب الألحان التي يجب أن يطرب لها المستمعون ، ولغيرها لا يطربون ، وإلا فهم مذنبون آثمون مارقون .

ونحس في مقابل ذلك ردود أفعال مضادة تصدر على شكل نغمات صاخبة يطلقها فريق آخر على أوتار الإباحية والتحرر من أي قيد ينسب إلى خلق أو دين ، يحاول أن يصل بتلك النغمات إلى آذان السامعين ، لينسوا معها كل ما سمعوه من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وهم بذلك يظنون أنهم مجددون ناصحون مخلصون ، وما دروا أنهم هم المفسدون لو كانوا يعلمون .

وأمام هذا الخلط العجيب الغريب ، بين هذه النغمات وتلك ، كان لا بد من موقف مشرف واضح ، ورأي كاشف فاضح ، يزيل اللبس ، ويرفع الغموض في ظل الضوابط الشرعية ، والمعايير الخلقية ، قبل أن يفتن بهذه النغمات أناس صالحون ، ويخدع بتلك آخرون طيبون ، وهم لا يدرون أن للحق صوتاً دفنته تلك النغمات في طياتها ، كان عليهم أن يستمعوه ، وشعاعاً منيراً حجبته بعض السحب في ثناياها ، كان عليهم أن يتلمسوه .

صحيح أن المرأة خلقت من أجل الرجل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾(١) فهي وإن خلقت لإسعاد الرجل ، وليجد إلى جوارها أنسه وسكنه ؛ لكن هذا لا يعني أن يكون مبرراً لظلمها وقهرها وإذلالها ؛ إذ ليس كل ما خلق للإنسان يجوز له العبث فيه أو الاستهانة به . فقد خلق الله تعالى كل ما في الأرض للإنسان كما قال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾(٢) فهل يحق للإنسان أن يسيء استعمال الماء أو يضيعه فلا يعرف قدره بحجة أنه مما خلق له ؟ ! انظر إلى الناس كيف يقدمون الماء للعطشان بأفخر الأباريق وأجمل الكؤوس ؟ ثم انظر لهذا العطشان وهو

---

(١) من سورة الروم : (الآية / ٢١)

(٢) من سورة البقرة : (الآية / ٢٩)

يستقبل كأس الماء كيف يحتفي به ليطفئ لهيب ظمئه ويشكر الله على فضله ؟ !

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1]

ثم انظر إلى البستاني الذي تشققت من العطش أرضه ، وتهدد بالخطر نباته ، كيف يستقبل الماء إذا ورد عليه ؟ ! فإذا كان هذا شأن الناس في بعض ما خلق لهم ، فهل يحق لعاقل أن يهين المرأة ويستذلها بحجة أنها خلقت له ؟ أم أن عليه أن يكرمها ويقدرها ، ويشكر ربه الذي أكرمه بها ، لتدوم تلك النعمة بشكرها .

المرأة نصف المجتمع ، وهي إن ظلمت فلن تكون أحسن حالاً منها إذا ظلمت ، ولن تسعد الأسرة بها ظالمة أو مظلومة ، ولن يتحقق للأمة عزها ومجدها والمرأة فيها يقتلها بؤسها وشقاؤها .

المرأة إذا فسدت خانت وظلمت ، وإذا تكبرت بغت وتبرمت ، وإذا ترجلت تجبرت وفجرت ، أما إذا ظُلِمت أو حُرِمت ، فلانت واستكانت ، وصبرت واحتسبت ، فإن هذا لا يعني أن كل المشكلات قد حُلت ، وإنما يعني أن هناك قنابل موقوتة قد زرعت ، والله وحده يعلم ما الذي يحدث لو تفجرت . . ؟ لأن من لا خلاق له من الرجال لا يحمله ضعف المرأة المؤدبة ولينها إلا على مزيد من ظلمها ، والاعتداء عليها ، ولا يزداد اللئيم على رفق المرأة المهذبة ولطفها إلا بطشاً بها ، وإعراضاً عنها .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته .:. وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

أنا لا أقول بأن جميع النسوة مظلومات مقهورات ، كما لا يمكن أن يكن جميعهن ظالمات باغيات .

فكم في النسوة من متسلطات متغطرسات ! وكم فيهن من مظلومات صابرات محتسبات !

---

(١) من سورة إبراهيم : (الآية / ٧)

وإن أي مظهر من مظاهر الاستقرار في بعض البيوت لا يعني بالضرورة أن لا يكون هنالك ظالم ومظلوم . فإذا آثرت المرأة الصبر على البلاء ، واحتسبت أجرها عند خالق الأرض والسماء ، فإن لها الأجر ، لكن على صاحبها الوزر .

وفي مقابل ذلك ، فقد تظلم المرأة الرجل فتثقل كاهله ، وتقلق راحته ، وهو يصبر على أذاها طمعاً في هداها ، فهل هذا يعني أنها لم ترتكب إثماً ، ولم تقترف ذنباً ، مادام صاحبها يقيم معها ولا يفارقها ؟

قال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾(١)

هدفنا في هذا الكتاب أن يرفع الظلم من البيوت ، وأن يحس البيت بأهمية قيامه على الحب والرحمة والمعروف ، ليكون أهلاً لإسعاده ، ومحلاً لمغفرة ربه ورحمته ، بعد أن تعالت الصيحات ، وكثرت النداءات ، لإصلاح البيوت التي غابت فيها التربية الصحيحة ، فظهر في أهلها الفساد الذي أهلك الحرث والنسل ، وأكل الأخضر واليابس .

قال الله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ (٢)

الصراع مع المرأة قديم قدم التاريخ ، وقد حيرت عقول الرجال من حولها ، فهي في نظر بعضهم ظالمة شريرة تجب معاقبتها ، وهي عند آخرين مظلومة مسكينة تجب رحمتها .

فامرأة العزيز هل كانت ظالمة أم مظلومة ؟ عندما راودت يوسف عن نفسه ، وشغفت بحبه ، ثم ادعت براءتها ، واتهمته بالاعتداء عليها ، ثم

---

(١) من سورة الزلزلة : (الآيتان / ٧ ، ٨)

(٢) من سورة الشورى : (الآية / ٣٠)

فضح الله أمرها ، فرجعت إلى رشدها وصوابها ، واعترفت بكيدها ومكرها .

قال الله تعالى : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (١)

وبعد هذا كان اعتراف امرأة العزيز ، وكانت تبرئة يوسف عليه السلام مما نسبته إليه .

قال الله سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢)

---

(١) من سورة يوسف : (الآيات / ٢٣ ـ ٢٨)

(٢) من سورة يوسف : (الآيات / ٥٠ ـ ٥٣)

فهل كانت امرأة العزيز في اتهامها بريئاً ظالمة أم مظلومة ؟ نعم قد يعلو صوت الحمقاء وهي في مثل تلك الحالة الخرقاء فتقول : أنا مظلومة ، لأن الجمال الذي كان عليه يوسف هو الذي حرك فيَّ هذه النفس ، وأثار فيَّ تلك الغريزة . فهل أكون ظالمة إذا فتنت به أوتعرضت له ؟

لكن مثل هذا المنطق يجعل كل معتد بريئاً ، ويجعل الرجل في مقابل ذلك يتحدث باللغة نفسها ، فيعتدي على من شاء من النساء متى شاء ، بحجة أنهن كن سبباً في فتنته وإغوائه ، فمثل هذا المنطق لا نريد أن نلتفت إليه ، وإنما نريد أن نقف مع المرأة وقفة تأمل وإنصاف ، فنرى أظالمة هي فنعاقبها ، أم مظلومة فنواسيها ؟

هذا هو السؤال المحير الذي اختلفت فيه الآراء من قبل ومن بعد ، لأن كلاً ينظر إليه من زاوية مختلفة .

فقد حكي أنه كان في قديم الزمان ملك يختلف مع وزيره في كثير من المناظرات ، فحضر حوارهما في إحدى الليالي حكيم وهما يتناظران في المرأة ، فرفعها الملك إلى مصاف الملائكة ، بينما هبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين ، فلما علا صوتهما خرج الحكيم وغاب عن المجلس ساعة ، ثم عاد ومعه لوح رسم على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء ، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء ، فقطع عليهما حديثهما وقال لهما : أحب أن أعرض عليكما هذه الصورة ، ليعطيني كل منكما رأيه فيها ، فعرض على الملك صورة الفتاة الحسناء ، فامتدحها وأثنى عليها ، فرجع إلى الوزير وقد قلب الصورة بحركة رشيقة ، وعرض عليه صورة العجوز الشمطاء ، فاستعاذ بالله من رؤيتها وذمها ، فاغتاظ الملك ورمى الوزير بالجهل وفساد الذوق ، وهو يظن أن وزيره يعيب صورة الفتاة الحسناء التي رآها . وهنا استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه

فسكن ثائرهما وضحكا على ما كان منهما ، ثم قال لهما الحكيم : هذا ما أنتما فيه منذ الليلة ، وقد ضربت لكما هذا المثل لتعلما أنكما متفقان في جميع ما كنتما تختلفان فيه ، لو أنكما نظرتما إلى المسائل من جهة واحدة .

كما نقل إلينا القاضي التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة والضيقة » ما مفاده : أن الأمير إسحاق بن إبراهيم المصعبي كان له نديم يعرف بأبي عبيدة استدعاه ذات ليلة في نصف الليل فخاف من بطشه ، فلما دخل عليه سمع بكاء امرأة ، فلما انتهى إليه قال : اجلس أبا عبيدة ، فسكن روعه ، فرمى إليه كتباً كانت بين يديه ، فلما قرأها إذا بها أخبار الشرط من أماكن متعددة تحكي فساد نساء من بنات الوزراء الذين بادوا وخلفوهن . فقال أبو عبيدة : قد قرأت هذه الكتب فما يأمرني به الأمير أعزه الله . فقال : ويحك يا أبا عبيدة ، هؤلاء الناس الذين ورد ذكر حال بناتهم ، كلهم كانوا أجل مني أو مثلي ، وقد صار حال بناتهم إلى ما سمعت ، وقد وقع في نفسي أن بناتي بعدي سيبلغن هذا المبلغ ، وقد جمعتهن ، وهن خمس في هذه الحجرة لأقتلهن الساعة وأستريح ، ثم أدركتني رقة البشرية ، والخوف من الله تعالى ، فأردت أن أسمع رأيك .

فقال أبو عبيدة : أصلح الله الأمير ، إن آباء هؤلاء النسوة أخطأوا في تدبيرهن ، و لم يحفظوهن بالأزواج ، فخلون بأنفسهن ففسدن ، ولو جعلوهن في أعناق الأكفاء ما جرى منهن هذا . والذي أرى أن تستدعي فلاناً القائد فله خمسة بنين فتزوج كل واحدة من بناتك واحداً منهم ، فتكفى العار والنار ، ويحفظك الله فيهن . فأعجب الأمير بهذا الرأي وتم الأمر ، ونجت البنات من القتل ، وتحولت الغمة إلى نعمة ولله الحمد والمنة .(1)

---

(1) نقلا عن كتاب الفرج بعد الشدة والضيقة ـ الجزء الأول ، بتصرف / ١٤٧ ـ ١٤٩ ، لإبراهيم بن عبد الله الحازمي ، الطبعة الرابعة ١٤١٥ هـ .

هذه الحال في المرأة ، وهذه النظرة إليها تكررت على مر العصور ؛ فالعرب في جاهليتهم اتخذوا آلهة يعبدونها ، اعتقدوا أنها بنات الله ، وسموها تسمية الأنثى ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على تقديسهم للأنثى ، فكانت اللات ، وكانت العزى ، وكانت مناة . لكنهم في مقابل ذلك كانوا يسيئون إلى الأنثى أي إساءة ، فكان أحدهم يقتله الخجل إذا بشر بأنه ولدت له أنثى ، ويتوارى من مواجهة قومه ، فأنكر الله عليهم هذا التناقض ، وهذه القسمة الجائرة .

قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ (١)

أجل ! أنكر الله عليهم اتخاذ الآلهة على أنها بنات الله ، في وقت كانوا يكرهون الأنثى لأنفسهم ، وينفرون منها كما تفر الحمر من قسورة .

قال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢)

ويزول هذا التردد في إمساك الأنثى على ذل ومهانة ، أو دفنها وهي حية في التراب ، حين يزداد الغيظ على هذه الأنثى البريئة ، وتتعاظم الكراهية لها ، ولا يبقى سبيل إلى بقائها حية ، فتدس في التراب ، لتلقى مصيرها على أبشع صورة .

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٣)

---

(١) من سورة النجم : (الآيات / ١٩ ـ ٢٢)

(٢) من سورة النحل : (الآيتان / ٥٨ ، ٥٩)

(٣) من سورة التكوير : (الآيتان / ٨ ، ٩)

ويعلو شأن المرأة في التاريخ القديم ، لتكون بلقيس ملكة مطاعة في سبأ من بلاد اليمن زمن نبي الله سليمان عليه السلام ، ثم تسلم مع سليمان عليه السلام لله رب العالمين .

قال الله سبحانه : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾(١)

هذا الموقف المذبذب تجاه الأنثى على مر التاريخ ، لعله متأثر بمواقف بعض الحيوانات أو الحشرات في عوالمها المختلفة . ففي مملكة النحل تحتل القيادة العليا أنثى تتوج ملكة مطاعة ، وفي عالم النمل تأمر النملة الأنثى قومها بالدخول إلى مساكنهم ، وكأنها الناطقة باسمهم ، والمتحدثة الرسمية بشأنهم . قال جل ذكره : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(٢)

فالآمرة الناهية أنثى ، بدليل : قالت نملة ، ولو كان ذكراً لكانت : قال نملة لأن تاء نملة ليست تاء تأنيث وإنما هي تاء إفراد ، كما هو معلوم في مواضعه .

وفي عالم الدواجن نجد خلاف ذلك ، إذ يتحكم في حظيرة الدجاج ديك يقف رافعاً رأسه ، شامخاً بأنفه ، وهو يعلن سيطرته وأمره ونهيه على كل الدجاجات .

وفي قطعان الأغنام يتقدم كبش كبير هذا القطيع أو ذاك ، لتمشي من ورائه غنيمات قطيعه دون تردد أو تذمر مستجيبة لتلك القيادة فلا تخالفها ، ولا تتمرد عليها .

---

(١) من سورة النمل : (الآيتان / ٢٢ ، ٢٣)

(٢) من سورة النمل : (الآية / ١٨)

أجل ! لعل هذه الازدواجية في تتويج الأنثى وطاعتها ، أو في قهرها وتبعيتها ، قد تأثرت به البشرية في سلوكها ومواقفها على مر عصورها .

فالمرأة على امتداد التاريخ تارة ملاك مقدس ، لا يبلغ رتبته الآخرون ، فلا يجوز أن يعكر له صفو ، ولا أن يمسه أحد بسوء ، ويجب أن يحظى بالاحترام والتكريم والتقدير ؛ بل إن عظمة الرجال إنما تنبع من النساء ، لأن وراء كل عظيم امرأة .

وهي تارة أخرى شيطان مريد ، بما انطوت عليه من مكر وخداع ، فهي مصدر كل شر وبلاء ؛ بل هي لعنة هبطت إلى الأرض من السماء ، فما يكون من شر وشقاء إلا بتدبيرها ، فهي فتنة البشرية ، وسبب ضلالها وضياعها ، لأنها تسيطر على الرجال فتأسرهم بألاعيبها ؛ حتى لا يجدوا بدأ من تنفيذ مطالبها . لذا فإنها يجب أن تلقى من الذل والمهانة بقدر ما تمتلك من الفتنة والمكر والغواية .

هاتان النظرتان إلى المرأة تتردد نغماتها في كل زمان ومكان ، ولهذه النغمة جنود وأتباع ، ولتلك بلاد وضياع ، والمرأة حائرة مترددة تخدعها هذه النغمة تارة ، فإذا فيها شقاؤها ، فتهرب إلى الأخرى ، فإذا فيها ذلها ومهانتها .

فهي لم تجد راحتها وسعادتها مع أولئك الذين أوهموها بأنهم رفعوها ، وما دروا بأنهم ظلموها ، حين أرادوها لمطامعهم ، وجعلوها لتحقيق رغباتهم . عبثوا بجمالها فجعلوه على الصفحات الأولى من المجلات ، وعلى مداخل السينمايات ، ثم على الملبوسات والمعلبات . كما خدشوا حياءها حين اختاروها لتجذب الرجال إليها في أفخر الفنادق والمحلات ، ولم يكتفوا بذلك حتى أغروها لتقضي على ما تبقى من خلق أبناء دينها وأمتها ، فضموها إلى الفنانين والفنانات مع الممثلين والممثلات ، والمغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات ، ولها ما تشاء بعدها من الجاه العريض

والدريهمات .

لكن ما لبثت المرأة الذكية الموفقة أن فطنت إلى ما يراد لها ، ويحاك ضدها ، فأعلنت عن ندمها وإقلاعها عن ذنبها ، ودخلت في عداد التائبات العابدات .

كما أن المرأة لم تجد أنسها وسعادتها بالطبع مع أولئك الذين خدعوها وأذلوها واستعبدوها ، لأنها في زعمهم ما خلقت إلا لذلك ، ويجب أن لا ترى نفسها أكثر من ذلك ، وعليها أن تعترف بأنها ليست سوى حذاء في رجل أحدهم يلبسه متى شاء ، ويستبدله متى شاء ، ويخلعه متى شاء ، ليرميه أين يشاء .

وأمام هذا كله كان لا بد للمرأة أن تعرف طريق نجاتها ، وكان لا بد للمجتمع من حولها أن يفهمها ويرفق بها ، ليأخذ بيدها ويساعدها ، كي تكون إلى جانبه في تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، في ظل مواهبها ، ومؤهلاتها ، واستعداداتها .

من أجل ذلك كانت تلك الدراسة عن المرأة من خلال المواقف التي سأعرضها ، والتي سأبين فيها متى تكون المرأة معتدية ظالمة ؟ ومتى تكون مقهورة مظلومة ؟ بكل أمانة وإخلاص ، لأني خبرت الحياة مع الأنثى إبناً وأخاً لأخوات ، وزوجاً وأباً لبنات ، وكانت تجربتي الزوجية أن أمضت زوجتي جزءاً من حياتها معي وهي موظفة (مدرسة) ، ثم عاشت إلى جانبي ولا تزال ربة بيت مستقيلة ، وقدر الله أن تكتمل لدي الصورة عن الأنثى ، ليكون حديثي عنها حديث من فهمها وعايشها على كل حال من أحوالها ، فكان زواج إحدى بنتي التي أمضت فترة أنس ، ثم أيام بؤس ، حتى ردت كل ما أخذت ، لتستعيد حريتها وكرامتها ، فتعمقت لدي مشاعر الأبوة الحانية بكل أبعادها . ولله الحمد من قبل ومن بعد .

قال الله تعالى ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾(١)

فهل بقي للأنثى من وضع تشتكيه أو ترتجيه ، لم أكن لأمرَّ فيه أو أعانيه ؟ سواء أكان ذلك على سبيل الحقيقة ، أم كان على سبيل التخيل الذي أصبحت أملك نواصيه . وإني لأرجو الله أن تكون كتابتي قد لامست كبد الحقيقة ، لأنها عن تجربة صادقة وعميقة ، مادام الأدب هو ذاك ، وهو التعبير بالكلمة عن تجربة إنسانية صادقة وعميقة بأسلوب رفيع .

والله أسأل أن ينال كلامي قبولاً لدى الرجال والنساء على حد سواء ، لنعيش جميعا سعداء ، في ظلال الأمن والهناء ، والود والرحمة والوفاء .

قال الله تعالى :﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾(٢)

(١) من سورة النساء : (الآية / ١٣٠)

(٢) من سورة الروم : (الآية / ٢١)

هل المرأة أكثر أهل الجنة ؟

قد يبدو هذا السؤال غريباً للوهلة الأولى ، لكنه بعد التأمل فيه نجد أنه لا بد من الإجابة عنه ، وكشف الحقيقة الغامضة .

لقد حلا لكثير من الناس إذا أرادوا الحديث عن المرأة أن يجعلوها أكثر أهل النار فحسب ، استناداً إلى ما جاء في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء »(١)

ونسوا أو تناسوا أن يلفتوا الأنظار إلى أنها أكثر أهل الجنة كذلك ، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ ، وأنه لا تعارض بين الأمرين على ما سأبينه من أقوال الأئمة الأعلام في هذه القضية إن شاء الله تعالى .

جاء في صحيح مسلم : (أخبرنا أيوب عن محمد قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أوَ لم يقل أبو القاسم ﷺ : « إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوأ كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب . » ؟ !)(٢)

قال الإمام النووي – رحمه الله – عند شرحه للحديث : (قال القاضي – أي القاضي عياض – : ظاهر هذا الحديث أن النساء أكثر أهل الجنة ، وفي الحديث الآخر أنهن أكثر أهل النار . قال فيخرج من مجموع هذا أن النساء أكثر ولد آدم . قال وهذا كله في الآدميات ، وإلا فقد

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٢ / كتاب بدء الخلق – ٨ ، رقم الحديث ٣٢٤١)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٧ / كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ص ١٧٠ ، ١٧١)

جاء للواحد من أهل الجنة من الحور العدد الكثير .)[1]

وجاء في صحيح البخاري : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين على إثرهم كأشد كوكب إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، لكل امرئ منهم زوجتان ، كل واحدة منهما يرى مخ ساقها من وراء لحمها من الحسن . . . »[2]

وفي مقابل ذلك جاء في صحيح مسلم : (حدثنا شعبة عن أبي التياح قال : كان لمطرف بن عبد الله امرأتان فجاء من عند إحداهما فقالت الأخرى : جئت من عند فلانة ؟ فقال : جئت من عند عمران بن حصين فحدثنا أن رسول الله ﷺ قال : « إن أقل ساكني الجنة النساء »)[3]

ولا بد لنا أمام هذا الحديث الصحيح الصريح من وقفة مع أقوال العلماء ، للتوفيق بينه وبين ما سبقه ، ليتضح أن المرأة هي أقل ساكني الجنة في أول الأمر ، ثم عندما يخرج الناس بالشفاعة من النار ويدخلون الجنة ، ويكون أكثرهم النساء يصير النساء أكثر أهل الجنة ، والله أعلم .

ولكن لا بد لنا قبل ذلك من التنبيه على أن الصحابي عمران رضي الله عنه قد اختار وهو يرد على زوجه العبارة الألطف وهي أنها أقل ساكني الجنة وليس أكثر أهل النار مع أنها أفرطت في غيرتها ، وتطاولت في مساءلتها ، وذلك حفاظاً على ودادها وحسن معاشرتها .

هذا وقد جاء التوفيق بين أحاديث الباب عند الحافظ ابن حجر ـــ رحمه الله ـ بقوله : (عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث مرفوع « فيدخل الرجل

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٦ / كتاب بدء الخلق ـ ٨ ، رقم الحديث ٣٢٤٦)

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٧ / كتاب الذكر ، ص ٥٣ ـ رقم الحديث ٩٥)

على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله « وزوجتين من ولد آدم » . . . وقال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : . . . والذي يظهر أن المراد أن أقل ما لكل واحد منهم زوجتان . . . واستدل أبو هريرة بهذا الحديث على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال كما أخرجه مسلم من طريق ابن سيرين عنه ، وهو واضح ، لكن يعارضه قوله ﷺ في حديث الكسوف المتقدم « رأيتكن أكثر أهل النار » ويجاب بأنه لا يلزم من أكثريتهن في النار نفي أكثريتهن في الجنة لكن يشكل على ذلك قوله ﷺ في الحديث الآخر « اطلعت في الجنة فرأيت أقل ساكنها النساء » ويحتمل أن يكون الراوي رواه بالمعنى الذي فهمه من أن كونهن أكثر ساكني النار يلزم منه أن يكن أقل ساكني الجنة ، وليس ذلك بلازم لما قدمته ، ويحتمل أن يكون ذلك في أول الأمر قبل خروج العصاة من النار بالشفاعة ، والله أعلم .)[1]

وقال ابن حجر الهيتمي ــ رحمه الله ــ : (وحديث أبي هريرة عند البيهقي وأبي يعلى وفيه فيدخل الجنة رجل منهم يمسي على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله تعالى وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله تعالى بعبادتهما في الدنيا وهذا يدل على أن النساء أكثر أهل الجنة ، ويجمع بينه وبين ما ورد من أنهن أكثر أهل النار بأنهن أكثر أهلها ابتداء وأكثر أهل الجنة انتهاء .)[2]

فالنسوة أكثر أهل الجنة في نهاية المطاف ، ولا يجوز لنا بحال أن لا نعلم عن المرأة سوى أنها أكثر أهل النار ، وإن صلت وخشعت ، وطاعت وبرت ، وتلت وتدبرت . كلا ، فالجنة والنار مخلوقتان لله عزوجل ، وهما للرجال وللنساء على حد سواء . فأبشري أيتها المرأة المؤمنة المحجبة ، التقية

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٦ / كتاب بدء الخلق ــ ٨ ، صفحة ٣٢٢)

(٢) حاشية العلامة ابن حجر الهيتمي على شرح الإيضاح في مناسك الحج للإمام النووي / ٥ .

المؤدبة ، بكرم الله وفضله ، وثوابه وعدله .

أبشري بأن الله لن يضيعك ، ولسوف يسبغ عليك من رضوانه ، ويدخلك فسيح جنانه برحمته وامتنانه .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾(١)

ثم اعلمي أنه ليس لكل رجل أن يدعي فضله عليك ، بل لعل بعض من يدعي ذلك لا يبلغ رتبتك يوم تفدين على ربك ، لأن دخول الجنة لم يجعله الله سبحانه على أساس الذكورة والأنوثة ، وإنما على أساس الإيمان والتقوى .

قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٢)

جاء في صحيح البخاري : « . . . ودخلت أسماء بنت عميس ـــ رضي الله عنها ـ ، ـ وهي ممن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر رضي الله عنه على حفصة ـ رضي الله عنها ـ ، ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر رضي الله عنه حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس . قال عمر رضي الله عنه : آلحبشية هذه ؟ آلبحرية هذه ؟ . قالت أسماء : نعم ، قال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله منكم . فغضبت وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم ، وكنا في دار ـــ أو في أرض ـ البعداء البغضاء بالحبشة ، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ . وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ ، ونحن كنا نؤذى ونخاف ، وسأذكر ذلك للنبي

---

(١) من سورة آل عمران : (الآية / ٧٣)

(٢) من سورة غافر : (الآية / ٤٠)

ﷺ وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه » ، « فلما جاء النبي ﷺ قالت : يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا . قال : فما قلت له ؟ قالت : قلت له كذا وكذا . قال : ليس بأحق بي منكم ، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان . »[1]

ولكن حذار أن تبالغي أيتها المرأة المظلومة في تكريم نفسك حتى تحتكري الجنة لك ولبنات جنسك ، حين تضعين نفسك في أعلى المنازل من دون الرجال ، فتكونين ظالمة لنفسك معتدية على غيرك ، وحسبك فخراً أن تكوني وبنات جنسك أكثرَ من الرجال في الجنة ، كما جاءت بذلك الأحاديث الصحيحة ، وأن تكوني مع الرجال في الأجر سواء .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[2]

وقال الله سبحانه : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[3]

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٧ / كتاب المغازي ـ ٣٨ ، باب غزوة خيبر ، رقم الحديث : ٤٢٣٠ ، ٤٢٣١)

(٢) من سورة الأحزاب : (الآية / ٣٥)

(٣) من سورة آل عمران : (الآية / ١٩٥)

هل على المرأة في القوامة من مهانة ؟

الأسرة هي المؤسسة الإنسانية العظيمة التي تحتاج أكثر من غيرها من المؤسسات إلى منهج واضح ، ونظام دقيق ؛ كي تتمكن من تحقيق أهدافها الكبرى في تنشئة العنصر الإنساني أكرم عناصر هذا الكون ، فيقوم بواجبه على أحسن وجه في عمارة الأرض التي استخلفه الله عليها .

ولما كانت أية مؤسسة لا بد لها حتى تستمر وترقى من مدير يقوم بمسؤوليتها ، ويدبر أمرها ، ويكون من أبرز عناصرها الذين تتوفر فيهم الكفاءة والأهلية والخبرة . لذا كانت الأسرة أولى بهذا كله من أية مؤسسة أخرى ، فكان لا بد من مدير مسؤول فيها يقوم بأمرها وقوامتها ، وحمايتها ورعايتها ، وتحمل كل مسؤولياتها ، دون أن يكون لهذا المسؤول منازع ينازعه السلطة والمسؤولية ، حتى لا تتعرض تلك المؤسسة الإنسانية الهامة للخراب والدمار ، كما يحدث لأية مؤسسة عندما تكون السلطة فيها لأكثر من فرد يمارس كل منهما حقه في الأمر والنهي .

من أجل ذلك وقع الاختيار في هذه المؤسسة العظيمة على الرجل ، ليقوم بقوامتها ، وحمايتها ، وتحمل كل أعبائها ، فوهبه الله عز وجل من المؤهلات والقدرات التي امتاز بها عن المرأة ما جعله أكثر أهليه لهذه المهمة .

وإذا كان هناك من يعترض على جعل القوامة في الأسرة بيد الرجل ، فكأنه يريدها بيد المرأة ، لأنه لا بد حتى تستقيم الحياة لدى أية مؤسسة اجتماعية من قيادة واحدة ليس غير ، وإلا فسدت .

قال الله تعالى : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾(١)

فإذا صارت القيادة إلى المرأة مثلاً ، فإن معترضاً آخر سوف يعترض

(١) من سورة الأنبياء : (الآية / ٢٢)

على هذه القيادة ، فيقول : لمَ كانت القوامة في الأسرة للمرأة دون الرجل ؟ وحتى لا تتكرر تلك الاعتراضات ، كان لا بد من ترك الأمر لخالق الأرض والسماوات ، خالق الرجل والمرأة جل في علاه ، فهو أولى بوضع تلك القيادة والمسؤولية في مكانها الصحيح .

قال الله سبحانه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(١)

وإذا كانت القيادة لدى أية مؤسسة لا بد أن تقوم على العدل والرحمة والمحبة ، وإلا تعرضت تلك المؤسسة للفوضى والاضطراب ، فإن هذه المؤسسة الإنسانية المهمة والخطيرة مؤسسة الأسرة أولى بهذه المعاني من غيرها ، وهي بحاجة ماسة إلى أن تكون القوامة فيها قائمة على المعروف والرحمة والوداد ، وليس على الظلم والقهر والاستعباد ، ليتحقق فيها السكن الذي لا بد من توفره للحياة الزوجية الآمنة المستقرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢)

وقال سبحانه : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(٣)

فالقوامة مسؤولية جسيمة ، وتكليف ثقيل ، أعفى الله المرأة منه ، وجعله في عنق الرجل ، فهو الذي يرعى الأسرة ويصونها ، ويحميها ، وينفق عليها ، ويدبر أمرها ، ويسعى في مصالحها وتأمين متطلباتها .

فهل على المرأة في القوامة بهذا المعنى من مهانة ؟ إنها تكريم للمرأة وإعفاءٌ لها من مسؤولية صارت إلى غيرها ، للتفرغ لمسؤولية أخرى تتناسب مع أنوثتها التي فطرها الله عليها ، في تربية أولادها ، والعمل في ميدان تخصصها واستعداداتها ، وليس ذلك احتقاراً لها ، كما أنه ليس

---

(١) من سورة الملك : (الآية / ١٤)

(٢) من سورة الروم : (الآية / ٢١)

(٣) من سورة النساء : (الآية / ١٩)

إقراراً بفضل القائم بأمرها بعينه عليها ، وقد يكون ، لأن هذا الفضل إنما يتعين بمدى الإيمان بالله وطاعته وتقواه ، فقد تسبق الزوجة زوجها في هذا ، وقد يسبقها .

فتفضيل الرجال على النساء هو على عمومه ، ولا يعني تفضيل أي رجل على أية امرأة مطلقاً كما سبق بيانه .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾(١)

على أن هذه القوامة تهتز وتتعرض للخطر بقدر ما يهتز الإنفاق ويتعرض للخطر .

جاء في « تفسير القرطبي » : (فَهِم العلماء من قوله تعالى : ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ أنه متى عجز عن نفقتها لم يكن قوَّاماً عليها .)(٢)

والمقصود بالنفقة هنا النفقة التي يقرها الشارع ويرضاها ، وليست النفقة التي تطلبها المرأة وتهواها ، مهما كانت جائرة أو فاجرة .

وكذا فإن هذه القوامة تهتز إذا لم يكن صاحبها يتمتع بالرجولة الكافية لرجولته .

جاء في « زاد المسير في علم التفسير » : (قال ابن عباس : ﴿قَوَّٰمُونَ ﴾ أي : مسلطون على تأديب النساء في الحق . وروى هشام ابن محمد عن أبيه في قوله : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال : إذا كانوا رجالاً وأنشد :

أكل امرئ تحسبين امرءاً ؟ ∴ ونـاراً توقد بالليل نـارا ؟)(٣)

(١) من سورة النساء : (الآية / ٣٤)

(٢) الجامع لأحكام القرآن : (ج٥ / ١١١)

(٣) بن الجوزي : (ج٢ / ٧٤)

لكن هذا لا يعني أن يترك العِنان للمرأة كي تقوِّم الرجولة في بعلها ، لترى أهليته للقوامة أو عدمها ، وإنما يمكن أن يكون ذلك للحكمين من أهله وأهلها ، أو للقاضي حال وقوع الخلاف والشقاق ، وإلا ضاعت القوامة ، وتهدمت الأسرة .

فإذا كانت القوامة بهذه المعايير والضوابط ، فهل يكون في إعفاء المرأة منها وإلحاقها بالرجل نعمة لها ، أم نقمة عليها ؟ فالقوامة ليست قوامة مطلقة بلا حدود ، كما يحلو لبعض الرجال أن يفهمها ، فيستخدمها لإرواء تسلطه وبطشه ، مادامت شخصيته مهزوزة أمام الآخرين ، فلا يجد من يتسلط عليه إشباعاً لمركّب النقص في شخصيته إلا أن يأمر وينهى في بيته بعيداً عن المعروف والمألوف ، وهو يظن أن طاعته واجبة على كل حال ، وقوامته مستمرة بلا حدود . وما على الزوجة إلا أن تطيعه في كل شيء ، نعم في كل شيء ، وتنسى وهي تتلقى تعليماته ، وتستقبل أوامره ، كل ما حفظته من خلق أو دين ، وكل ما ورثته من أعراف أو تقاليد في نشأتها على يدي أمها وأبيها ، وكل ماله صلة بماضيها . فيا سبحان الله العظيم ! ما أبعد هذا الخلق عن الخلق النبوي ، وما أعظم الذنب الذي يرتكبه أولئك الذين يدَّعون اتباعهم لهذا النبي الكريم ﷺ ، ثم لا يقتدون بهديه وسيرته في هذا الجانب الهام من حياته !

لقد كان من شأنه ﷺ مع أهله ، أنه كان يكثر من ذكرهن حتى بعد موتهن ، بل ويكرم صويحباتهن من أجلهن .

جاء في صحيح البخاري : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت :

« ما غِرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرتُ على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطِّعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا

خديجة ؟ فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد . »[1]

فأين الثرى من الثريا ؟ وأين ما كان عليه ﷺ مع أهله مما عليه بعض الرجال اليوم ، وبخاصة عند من يدعي محبة هذا النبي الكريم واتّباعه ﷺ ؟ فالقوامة ليست لاحتقار المرأة ، ولا لتذويب شخصيتها ، ولا لهدر كرامتها ، ولا لتعطيل ملكاتها وطاقاتها .

جاء في كتاب « في ظلال القرآن » : (إن هذه القوامة ليس من شأنها إلغاء شخصية المرأة في البيت ، ولا في المجتمع الإنساني ، ولا إلغاء وضعها المدني ، وإنما هي وظيفة داخل كيان الأسرة لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة ، وصيانتها وحمايتها ، ووجودُ القيِّم في مؤسسة ما ، لا يلغي وجود ولا شخصية ولا حقوق الشركاء فيها ، والعاملين في وظائفها . فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قوامة الرجل وما يصاحبها من عطف ورعاية ، وصيانة وحماية ، وتكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله .)[2]

ثم إنه إذا كانت المرأة الصالحة خيرَ متاع الدنيا ، فكيف يكون هذا المتاع ، والمرأة المؤمنة الصالحة المؤدبةُ المهذبةُ مظلومةٌ مقهورةٌ مستعبدةٌ ترتسم على وجهها كل ملامح البؤس والشقاء ، وتعلوها سحائب من الأسى واللوعة ، في ظل قوامة مريضة منحرفة ، لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر منكراً ؟

قال رسول الله ﷺ : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة . »[3]

فهل تكون القوامة المنضبطة بالمعروف لإذلال المرأة وإهانتها ؟

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٧ / كتاب مناقب الأنصار ـ ٢٠ ، رقم الحديث ٣٨١٨)

(٢) سيد قطب : (ج٢ / ٦٥٢)

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٠ / كتاب الرضاع ـ باب استحباب نكاح البكر)

وهل تعد المرأة بعدها تلك القوامة عليها لخزيها وعارها ؟

إن المرأة المؤمنة المؤدبة المهذبة سوف تسارع لتحقيق تطلعات زوجها ، وليس إلى أوامره فحسب ، لأن الحب الغامر سوف يطغى على قلبها ، ويجعلها جزءاً مهماً من زوجها تتحرك لحركته ، وتسعد لرؤيته ، وتستريح لطاعته ، وتطمئن لقوامته .

قال الله سبحانه : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾(١)

اللهم ألهمنا رشدنا ، وأعذنا من شر نفوسنا ، وأدخل الأنس والسرور إلى بيوتنا وأهلينا ، ووفقنا للاقتداء بنبينا ﷺ ، يا سميع الدعاء .

---

(١) من سورة البقرة : (الآية / ١٨٧)

هل درجة الرجال على النساء للتكليف لا للتشريف ؟

لا ننسى أن تفضيل الرجال على النساء تفضيل على العموم والإطلاق ، فخواص الرجال مفضلون على خواص النساء ، وعوامهم كذلك ، وهكذا ، وليس هناك رجل بعينه يستطيع أن يجزم بأنه أفضل من أية امرأة ، حتى ولو كانت زوجه ، وله عليها قوامته ، لأن الفضل إنما يكون بالتقوى والعمل الصالح ، وليس على أساس الذكورة أو الأنوثة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1]

وقال الله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾[2]

ومع هذا فقد جاء تمييز الرجال على النساء بدرجة ، وليسَ بدرجات ، في سياق الحديث عن الحقوق والواجبات في قوله سبحانه : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[3]

إلا أن هذه الدرجة كان للعلماء فيها أقوال ، فمنهم من وجد أنها مجرد تفضل الرجل على المرأة بحسن العشرة والخلق .

جاء في تفسير « المحرر الوجيز » : (فقال ابن عباس : « تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق » أي إن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه ، وهذا قول حسن بارع .)[4]

ومنهم من وجد أنها خاصة بمناسبة الآية فقط ، أي أن الدرجة هي : حق الرجل في رد زوجه إلى عصمته في فترة العدة ، كما هو سياق الآية ، وليس

---

(١) من سورة الحجرات : (الآية / ١٣)

(٢) من سورة آل عمران : (الآية / ٧٣)

(٣) من سورة البقرة : (الآية / ٢٢٨)

(٤) ابن عطية : (جـ١ / ٢٢٩)

ذلك الحق للمرأة .

جـــاء في « ظلال القرآن » : (﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أحسب أنـها مقيدة في هذا السياق بحق الرجال في ردهن إلى عصمتهم في فـترة العـدة ، وقد جعل هذا الحق بيد الرجـل لأنـه هـو الـذي طلـق . . . وهـي درجـة مقيدة في هذا الموضع ، وليست مطلقة الدلالة ، كما يفهمها الكثـيرون ، ويتشهدون بها في غير موضعها .)[1]

ومنهم من وجد أنها درجة تكليف لا تشريف .

جـــاء في « صفوة التفاسير » : (﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ أي للرجال على النساء مـيزة ، وهـي فيمـا أمـر تعـالى مـن القوامـة والإنفـاق والإمرة ووجوب الطاعة ، فهي درجة تكليف لا درجة تشريف .)[2]

وجاء في الدرجة غير ذلك على ما سنبينه إن شاء الله تعالى .

ومادام الأمر كذلك ، فلنا أن نأخذ من التأويلات ما يتفق مع سماحـة الإسلام ، وخطه العام في تكريم المرأة ، بما لا يتعارض مع النصوص الثابتـة ، لتطمئن تلك المرأة إلى سلامة مستقبلها ، ولتقطـع الطريـق علـى كـل مـن يحاول المتاجرة بها وإغواءها .

وأياً ما كان الأمر ، فقد كان التمييز بدرجة وليس درجـات ، إلا أن بعضهم قد ضخم هذه الدرجة ، ليعيش في قمـم شـاهقات ، ويطـل علـى زوجه التي أودعها الأرض من فوق سبع سماوات ، فسبحان الله العظيم !

إن الله عزوجل عندما أراد أن تستقر الحياة على ظهر المعمورة ، جعل الناس على مراتب وطبقات ، لتكون الخدمة ، ويكون التسخير الذي لا بد منه لهذه العمارة ، فكانت تلك الفروق والدرجات .

---

(١) سيد قطب : (ج١ / ٢٤٦ ، ٢٤٧)

(٢) صفوة التفاسير : (ج١ / ١٤٦)

قال الله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1]

أجل ! كان لا بد من هذه الدرجات ، لتتحقق الخدمة ويتحقق التسخير ، لأنه إذا لم تكن بين الناس تلك الدرجات ، تعذرت عمارة الكون ، وفسدت الحياة .

لكن الحكيم الخبير سبحانه عندما تحدث عن الجانب الأسري ، وهو الأهم في هذه الحياة ، ميز الرجل على المرأة بدرجة ، لأن الحياة الزوجية أسمى من قضية الخدمة والتسخير . بل لعلها لا تحتاج إليها كثيراً ، لأن بعض الفقهاء لا يجعل خدمة المرأة في بيتها واجبة لزوجها ، وإنما هي تقوم بها متطوعة متبرعة ، وتعرف هذه القضية في محالها من كتب الفقه[2] ، ونحن لا نريد هنا أن نقف عندها طويلاً ، بقدر ما نحب أن نشير إلى أن القضية بين الرجل والمرأة أكرم من قضية الخدمة ، وفوق قضية التسخير ، لأن عقد الزوجية رباط مقدس ، وشركة من نوع فريد ، لا يمكن أن تضبطها المعايير المادية الأرضية .

ومن هنا كان تمييز الرجال بدرجة ، وليس درجات ، لأنه لم يكن للخدمة والتسخير ، وإنما لحياة أسرية نموذجية تقوم على الألفة والرحمة والوداد ، بعيداً عن الظلم والقهر والاستعباد .

قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها

---

(١) من سورة الزخرف : (الآية / ٣٢)

(٢) انظر حاشية ابن عابدين : (ج٥ / ٢٩٠ ، باب النفقة) ، والفقه الإسلامي وأدلته : (ج٧ / ٣٣٤)

ومسؤولة عن رعيتها . . . »[1]

جاء في « فتح الباري » : (والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه ، فهو مطلوب بالعدل فيه والقيام بمصالحه . . . ورعاية الرجل أهله سياسته لأمرهم ، وإيصالهم حقوقهم ، ورعاية المرأة تدبير أمر البيت والأولاد والخدم ، والنصيحة للزوج في كل ذلك .)[2]

فالمرأة راعية تشارك الرجل مسؤوليته في البيت ، فلا تتركه وحيداً ، وإنما تهتم بأمر هذا البيت ، وتسهر على مصلحته ، وتقدم نصحها الأمين لزوجها في كل ما فيه الخير لهذا البيت الذي تسعى لإسعاده ، وإدخال السرور والسكينة عليه ، ليتمكن من متابعة رحلته ، وتبليغ رسالته ، وتحقيق أهدافه في أجواء الحب الغامرة الأسرة .

جاء في الحديث القدسي قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه : « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . »[3]

فأي معنى للحب أسمى من هذا المعنى ؟ ! وهو أن يصير المرء بكليته مشغولاً بالله ، فلا يصغي إلا إلى ما يرضيه ، ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابه ، ولا يأنس إلا بمناجاته ، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوته .[4]

أجل ! عندما يرقى الحبيبان في بيت الزوجية إلى مراتب الحب السامية ، وتعبق في البيت نسائم الحب الزاكية ، ويطير الحبيبان على أجنحة الأنس

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٢ / الجمعة ـ ١١ ، رقم الحديث : ٨٩٣) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٢ / إمارة ـ ص ٢١٣)

(٢) ابن حجر : (ج١٣ / ١١٢ ، ١١٣)

(٣) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١١ / كتاب الرقاق ـ ٣٨ ، رقم الحديث ٦٥٠٢)

(٤) انظر فتح الباري على صحيح البخاري : (ج١١ / ٣٤٤)

والسعادة ، يرقى البيت ليكون البيت النموذجي المثالي القدوة الذي يتسابق فيه الشريكان ، ليحقق كل منهما لصاحبه ما يرجوه ، في غمرة الحب الآسر ، فيشاطره المسؤولية بكل وجدانه وأحاسيسه ومشاعره ، في ضوء تخصصه واستعداده . ليظهر مع تلك العلاقة الروحية أثر قوله سبحانه : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾[1] ، وهي آية في غنى عن التعليق عليها ، لأن أي تعليق عليها ، لن يكون أجمل من النظر فيها وتأملها .

في هذه الظلال الحبيبة التي ينعم فيها الزوجان ، نحب أن نفهم قوله سبحانه : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[2]

ولا بأس أن نقف وقفة تأمل مع ما تقدمه تلك الآية من لفتة لطيفة ، حيث كان البدء فيها بما للمرأة من حقوق قبل ما عليها من واجبات ، ولهذا دلالته ولطافته ، فكأن الآية الكريمة تريد أن تدغدغ عاطفة الرجل ، ليكون هو البادئ بتكريم زوجه ، التي انتقلت إلى بيته ، وتحولت إلى ضيافته ، فصارت أحوج إلى رفقه وإحسانه ، لإزالة وحشتها وكربتها ، بعد أن فارقت أمها وأباها ، ومن درجت معهم من الإخوة والأخوات في صباها ، وقد كانت معززة مكرمة بين أهلها وذويها ؛ وهي تحب أن ترى في بيتها الجديد ما يرضيها ، لا أن تفاجأ بما يفزعها ويؤذيها ، مادامت تقية نقية رضية .

جاء في الأثر : « ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم . »

فالقضية أولاً وقبل كل شيء قضية عطف ورحمة ووداد ، وليست قضية رق وذل واستعباد .

أما الحديث عن الحقوق والواجبات ، فإنما يكون عند من أخطأوا طبيعة الحياة الزوجية ، فقامت بينهم الخصومات والمنازعات .

---

(١) من سورة البقرة : (الآية ١٨٧)

(٢) من سورة البقرة : (الآية ٢٢٨)

فإذا أدركنا طبيعة الحياة الزوجية بهذا المفهوم ، أدركنا أن التفضيل بالدرجة تفضيل تكليف ، لا تفضيل تشريف ، وأن هذا التفضيل لن يكون على أية حال ظلماً للمرأة ، أو امتهاناً لقدرها ، وإنما هو لإسعادها وتكريمها .

جاء في « تفسير القرطبي » : (﴿ وَلَهُنَّ ﴾ أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن ، ولهذا قال ابن عباس : إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي ، وما أحب أن أستنظف كل حقي الذي لي عليها ، فتستوجب حقها الذي لها علي .)[1]

وجاء في « تفسير الماوردي » : (﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾ وفيه ثلاثة تأويلات : أحدها : ولهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن ، مثل الذي عليهن من الطاعة ، فيما أوجبه الله تعالى عليهن لأزواجهن ، وهو قول الضحاك .

والثاني : ولهن على أزواجهن من التصنع والتزين ، مثل ما لأزواجهن ، وهو قول ابن عباس .

والثالث : أن الذي على أزواجهن ، تركُ مضارتهن ، كما كان ذلك لأزواجهن ، وهو قول أبي جعفر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ ، وفيه خمسة تأويلات :

أحدها : فضل الميراث والجهاد . .

والثاني : أنه الإمرة والطاعة . .

والثالث : أنه إعطاء الصداق . .

والرابع : أفضاله عليها ، وأداء حقها إليها ، والصفح عما يجب له من الحقوق عليها ، وهو قول ابن عباس وقتادة . . .)[2]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : (ج٣ / ٨٢)

(٢) النكت والعيون تفسير الماوردي : (ج١ / ٢٩٢ ، ٢٩٣)

والتأويل الرابع للدرجة ، وهو : أفضال الرجل على زوجه ، وأداء حقها إليها ، والصفح عما له من الحقوق عليها . هذا التأويل أثبته القرطبي رحمه الله في تفسيره ، ونقل استحسان ابن عطية رحمه الله له .

جاء في « تفسير القرطبي » : (وقال ابن عباس : الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق ؛ أي إن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه . قال ابن عطية رحمه الله : وهذا قول حسن بارع .)[1]

كما نقل هذا المعنى شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره ورجحه ، فقال بعد أن استعرض الأقوال : (وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس وهو أن « الدرجة » التي ذكر الله تعالى في هذا الموضع ، ذكر الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها ، وإغضاؤه لها عنه ، وأداء كل الواجب لها عليه .)[2]

فلماذا لا نستحسن في بيوتنا ، وفي تربيتنا لأبنائنا وبناتنا ما استحسنه أهل العلم والفضل من سلفنا ، ليعود لبيوتنا سكنها واستقرارها ؟ !

ثم إنه لما كانت الدرجة عند كثير من أهل العلم والفضل على ما سبق ذكره ، فقد حق لنا أن نقول :

ظلموكِ أيتها المرأة التقية النقية ، عندما رشقكِ من لا خلاق لهم بتلك الكلمات : القوامة ، الطاعة ، الدرجة ، وهم لا يريدون منها إلا ذُلَّك واستعبادك ، وقد وهموا أنهم بذلك سوف يصيبون منك مقتلاً يروّون به ظمأ حقدهم ، كلما عصفت في بيت الزوجية رياح كراهيتهم الهوجاء ، وبلغت نار إضرارهم عَنان السماء .

---

(١) تفسير القرطبي : (ج٢ / ٨٣)

(٢) تفسير الطبري : (ج٣ / ٥٣٥) ، ط دار المعارف ـ الطبعة الثانية ، بدون تاريخ .

ظلموك أيتها المرأة المؤدبة المهذبة ، عندما شهر الذين لا خلاق لهم في وجهك وأنت عزلاء ، السلاح الذي استعاروه ، بل السلاح الذي سرقوه ، لـمَّا عجزوا عن الإتيان بدليل على تصرفاتهم الرعناء ، وسياساتهم الحمقاء .

ذلك السلاح هو تلك المطرقة الحديدية التي يحلو لمن لا خلاق لهم أن يحطموا بها رأس المحجبة المؤدبة المهذبة إذا تشفعت إلى صاحبها يوماً بطلب ، أو رجته أن يسمح لها بزيارة أهلها أو أحد من ذويها ، إذ كيف يصدر موافقته السامية لها ، وقد صارت إليه طاعتها ؟ ومن غيره يملك رقها واستعبادها ؟ ومن غيره يصرف أمرها ، ويتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شأنها ؟ فهو وحده صاحب القرار في ثكنته العسكرية ، وأوامره ونواهيه نابعة من قاموس عقله المعوج . وقد كان في أيام خطبته مخادعاً لا ينطلق لسانه إلا برشيق العبارات ، ومعسول الكلمات ، من مثل : أنت روحي ، أنت حياتي ، أنت سعادتي ، أنت سلوتي ، أنت أنسي ، أنت أملي الباسم ، أنت حلمي الزاهر ، أنت نور قلبي ، أنت إشراقة نفسي ، أنت يا أحلى نجم رأته عيني ، أنت يا أيتها الزهرة الناضرة التي تفتحت من أجلي ، وبسمت كي تبسم الحياة من حولي ، لكأني حين أحلم بك أحلم بالبيت السعيد الذي سيضيء فيه قمرك فتحلو الحياة من أجلك ، أرجوك أن تبقي إلى جواري ولا تفارقيني ، لأنه لا معنى للحياة بعدك بدونك ، أنت . . . ، أنت . . .

ثم تبدلت الأحوال بعد أن قضى وطره ، فصار لا يعرف إلا اللاءات التي أخفاها أيام خطبته في طياته ، واستبدلها جميعاً بضغطة رشيقة بـ : نعم وحاضر ، حتى كأنه لم يعد يدري أن في اللغة أداة هي « لا » تكون للنفي أو للنهي ، أو لنفي الجنس ، وكأن الشاعر عناه عندما قال :

ما قال : لا قط إلا في تشهده ∴ لولا التشهد كانت لاءَه نعم

فاتق الله أيها الرجل في امرأتك المؤمنة المحجبة ، المؤدبة المهذبة ، وحذار أن يغريك صبرها وأدبها بالمزيد من ظلمها ، أو أن يدفعك إغضاؤها وصفحها على المزيد من إذلالها وقهرها ، لأنك إن فعلت ، فلن تفلت من قبضة المنتقم الجبار خالقها ، يوم تفد عليه شاكية ضرها وبلواها ؛ حتى لو سكتت عنه في دنياها ، فأخفته حتى عن أمها وأبيها وكل ذويها .

فإذا كانت هذه بعض صور الظلم الواقعة على المحجبة ، المؤدبة المهذبة . فإنه في مقابل ذلك يجب تذكير غيرها من النساء ، بأنها لن تكون أقل ظلماً من ذلك الرجل ، إذا هي وجدت في زوجها المؤمن صاحب الخلق الرفيع القوامة الحقة ، والرعاية الصادقة ، والحب الوفي ، ثم هي بعد ذلك تطاولت على تلك النعمة ، وأصرت على كبريائها وعصيانها ، وشمخت متعجرفة بدلالها ، مغرورة بجمالها ، ولم تصغ إلى نصائح زوجها المؤمن الغيور ، وإنما تمادت في غيها وضلالها ، فإنها عندئذ تحفر قبرها بيدها ، وتكون ظالمة لنفسها ولزوجها ، ولأسرتها ولأمتها . ولسوف تعض أصابعها ندماً عندما تقع الواقعة ، وتفقد ذلك الزوج الوفي ، وتلك الجوهرة الثمينة ، وتخسر ذلك البيت الذي كان يحفه الزوج بكل حبه وعطفه ورحمته ، وعلى الباغي تدور الدوائر ، والبادئ أظلم .

قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١)

---

(١) من سورة النحل : (الآية / ١١٨)

هل الحرية للمرأة تطغيها ؟

الحرية تلك الكلمة العذبة التي ينطق بها كل مخلوق بلغته التي يعرفها .

الحرية تلك الأنشودة الحلوة التي يتغنى بها كل كائن حي فيرددها ، ويطرب لها .

الحرية هي الكرامة ، هي الحياة السعيدة ، هي البسمة الحانية ، هي الأمل الزاهر ، هي الإبداع ، هي العطاء ، هي النماء ، هي النصر على الأعداء .

مَن مِن الناس لا يعشق الحرية ؟ بل أي من المخلوقات لا يرقص طرباً إذا أُعطيها ، ولا يبكي حزناً وألماً إذا افتقدها ؟ حتى إن الأقفاص الذهبية المرصعة بالحجارة الكريمة لا تعوض الأطيار الصدَّاحة عن حريتها إذا حبست بداخلها ، كما لا تعوض كل المآكل الشهية سجيناً عن حريته التي سُلبها .

الحرية أثمن شيء يبحث عنه الناس بعد الإيمان بالله سبحانه ، حتى إن هذا الإيمان عندما طالب الله به عبادَه أعطاهم مساحة كبيرة من الحرية ، ليختاروا ما يشاؤون ، ثم لتكون محاسبتهم بعد ذلك عادلة ورحيمة .

قال الله عز وجل : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1]

جاء في كتاب « في ظلال القرآن » : (﴿ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان ؛ واحترام إرادته وفكره ومشاعره ؛ وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد ؛ وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه ، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني .)[2]

---

(١) من سورة البقرة : (الآية / ٢٥٦)

(٢) سيد قطب : (ج١ / ٢٩١)

فإذا كانت العقيدة وهي الأهم في حياة الإنسان ، لأن فيها سعادته الأبدية ، تأخذ عند اعتناقها هذه المساحة الكبيرة من الحرية ، فهل يصح الإكراه على فعل ما هو أدنى من ذلك من الأمور ؟ بحيث يكره الإنسان على فعل كل شيء ، ولا تكون له حرية في فعل أي شيء ، ليكون كأسنان القرص المسنن التي تدور بدورانه ، وتقف لسكونه .

روح الشريعة السمحة تأبى أن تسلب مخلوقاً حريته على الصورة السالفة ، ذكراً كان أو أنثى ، وإنما تنظم له تلك الحرية ، فلا هي تخنقها ، ولا هي تطلقها .

والمرأة إحدى هذه المخلوقات ، وهي تشكل نصف المجتمع البشري أو يزيد ، وهي المحضن الأول الذي يتخرج فيه الأبناء ، ليكونوا بناة المستقبل ، أليست هي أحق بهذه الحرية من غيرها ؟ فلماذا تحرم حريتها ؟ ولماذا تهدر كرامتها ؟ عندما تعتز بإسلامها ، وتباهي بحجابها ، وتفخر بأدبها وخلقها . هل لأن حريتها تطغيها ؟ أم لأن حريتها تغويها ؟

لماذا تطلق الحرية بكل أشكالها ومفاهيمها للعاهرات الفاجرات ، ولا يكون من ذلك شيء للمؤمنات الصالحات ؟ وأية حرية تريدها المحجبة المؤدبة المهذبة ؟ أتريد الحرية التي تمارسها الديكة والعصافير ؟ أم تطالب بالحرية المتمردة الفاجرة ؟ التي تحدث عنها الشاعر بقوله :

مزقي يا ابنة العراق الحجابا ∴ واسفري فالحياة تبغي انقلابا

أم تنادي بالحرية التي تزاحم فيها المرأة الرجل في عمله ، وسوقه ومتجره ، وعلى مقاعد درسه ، وفي ذهابه وإيابه ، متبرجة كاسية عارية ؟

كلا ! كلا ! ليست هذه هي الحرية التي تبحث عنها المهذبة المؤدبة ، وإنما تبحث عن الحرية التي منحها الله للمرأة المؤمنة ، فحرمها إياها رجل ظالم بتسلطه وغطرسته ، أو حرمها إياها مجتمع متخلف بجهله وتزمّته .

إنها تبحث عن حرية الكرامة الإنسانية التي افتقدتها المرأة المهذبة ، عندما ظن صاحبها بقلة دينه وخلقه أنه بمهره لها قد دفع ثمنها فاشتراها ، حتى لم يعد لها في ظله الثقيل إلا أن تتنفس من خلال الرئة التي صنعها لها ، وليس لأحد أن يتدخل في أمرها ، ليعيد إليها بعض حريتها ما دامت في أسره ورقه .

فإذا استنجدت المسكينة بأمها وأبيها شاكية باكية قيل لها : طاعتك لزوجك مقدمة على طاعتك لأمك وأبيك ، ونسي هؤلاء أن الطاعة لا تكون إلا في معروف ، وأن قضية المعروف في الحياة الزوجية احتلت أكبر مساحة في الآيات القرآنية ، وحسبوا أن حرية المرأة تنتهي يوم يكون عقدها ، ليبدأ ظلمها واستعبادها ، وللرجل عندها كل شيء من أمرها ، ما لم يكسر لها عظماً ، أو يفقأ لها عيناً .

فإذا أصرت تلك المؤمنة المعذبة على مطالبتها بحقها في حريتها التي منحها الله إياها كراعية في بيت زوجها ، وليس كأمة في سجن عبوديتها ، طولبت بأن ترد الحديقة لصاحبها وإلا ؟ !

وأين هي الحديقة التي تملكها ؟ إنها لا تملك منها اليوم إلا بعض ما تبقى من ألبستها التي أكلت تكاليفها يوم عرسها كل مهرها حسب أعراف أهلها ، وتقاليد قومها .

فأين هي حديقتها التي تردها ؟ وحالها ليست كحال زينب ــ رضي الله عنها ــ التي جاءت رسول الله ﷺ وهي لا تشتكي سوء خلق أو دين في قيس بن ثابت رضي الله عنه زوجها ، لأنه لم يقصر في حقها ، ولم يتعد على حريتها أو كرامتها ، ومع ذلك فقد جاءت تطلب خلاصها ، عندها قال

لها الرسول الكريم ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ »[1] فهل تجبر المرأة على رد حديقتها ـ إن كانت هناك حديقة ـ لكل معتد ظالم قلَّ خلقه ودينه عندما يضايق زوجه لينفِّرها ، كي يسترد منها كل ما أعطاها ؟ حتى إذا لم تجد زوجه ما ترده ، لتفتدي به نفسها ، أجبرت على العودة إلى بيت الطاعة لتلقى مصيرها ، وتعرف كيف يكون الانتقام منها ، ثم يكون ما لا تحمد عقباه ، أو أنها سوف تضطر لاستدانة مهرها ـ إن وجدت من يقرضها ـ كي تحرر نفسها ، وتسترد كرامتها ، وتُبقي على دينها وخلقها ؛ وبخاصة إذا كانت إقامتها مع زوجها في غربتها بعيداً عن أهلها وذويها .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾[2]

وقال عز وجل : ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾[3]

وما ذنب المؤمنة المؤدبة إذا ابتليت بذئب لا كالذئاب ، لا يحسن عشرتها ، ولا يعرف حقها ، ولا يصون كرامتها ، حتى تكون خسارتها مزدوجة في نفسها ومالها ؟ ! ثم لتنطبع في ذاكرتها تلك الصورة المؤلمة من نصر الظالم المعتدي عليها ، في وقت لم يكن ليدور بخلدها أن ظالماً معتدياً يمكن أن يجد له من يعينه على بغيه ، ليكون ظافراً منتصراً ، في ظل

---

(١) الحديث في صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب الطلاق ـ ١٢ ، رقم ٥٢٧٣) ، ونصه : « عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خلق ودين ، ولكني أكره الكفر في الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم ، قال رسول الله ﷺ : اقبل الحديقة وطلقها تطليقة . »

(٢) من سورة البقرة : (الآية / ٢٣١)

(٣) من سورة الطلاق : (الآية / ٦)

الإسلام الذي لا تعرف له موقفاً واحداً كان فيه مع الظالم ضد المظلوم ، لتقف حائرة لا تدري بمَ تجيب أعداء الإسلام ، ولا كيف تدعوهم للإسلام ، إذا علموا بحالها ، وسمعوا ما قيل لها مع ظلمها وقهرها : ترجعين أو تردين ؟ هذا هو خيارك ، وهذه هي حريتك ، فهل تسمعين ؟ !

فإذا كانت هذه إحدى صور المرأة عندما تكون مظلومة ، فهل للمرأة أن تكون ظالمة في مقابل ذلك ؟ نعم إنها تكون ظالمة للرجل عندما تبسط سيطرتها عليه ، وتُصرُّ على تنفيذ كل مطالبها وشهواتها وأهوائها عن طريقه ، دون أدنى رحمة أو شفقة لحاله أو دخله ، ليكون أداة طيعة بين يديها ، وإلا ألقته في جحيمها ، وأحرقته بنارها .

أيتها المرأة ، إن لحريتك حدوداً يجب أن تنتهي إليها ، وإن لزوجك عليك حقوقاً فأدِّيها ، وإن لأولادك واجبات فلا تهمليها ، وإن لبيتك مسؤوليات فلا تضيِّعيها ، ومن الخطأ أن تتصوري أن حريتك وأنت ربة بيت تعني أن تخرجي من البيت متى تشائين ، وتسمُري مع صويحباتك ولا تنتهين ، وتطلبي أن يكون لك كل ما عند الخليلات من الأدوات والمسلِّيات ، والحلي والمجوهرات ، حتى ولو أرهقتِ كاهل زوجك بهذه المتطلبات ، أو تلحِّي على زوجك أن يحضر لك كل المحرمات ، من صحف ومجلات ومسلسلات ، حتى ولو ذهبت كل القيم والأخلاقيات .

فهل هكذا تكون حرية المرأة ؟ وهل بهذه التصرفات تكون الزوجة صالحة ، أو مؤدبة أو مهذبة ، أو تكون ممن تهتم في شؤون زوجها ، وتبذل كل وسعها في إسعاد بيتها ؟

كلا والله ! فهذه ليست من حرية المرأة في شيء ، بل إنها الحرية الباغية الفاجرة ، التي تشقى معها الزوجة قبل زوجها ، ليكون هلاكها وضياعها ، ثم ليكون شقاء الأمة بشقائها إذا كانت هذه حالها .

ظلموك أيتها المؤمنة المؤدبة عندما حسبوا أن حريتك تطغيك أو تغويك ، و لم يفطنوا إلى أن طغيان المراة وغوايتها لم يكن بسبب حريتها التي منحها الله إياها ، وإنما بسبب سوء استعمال تلك الحرية ، واستخدامها بدون ضوابطها الشرعية ، ومعاييرها الخلقية مِنْ قِبَلِ مَنْ فسدت تربيتها ، وتحكمت فيها شهواتها وأهواؤها .

فالحرية كأية قيمة من القيم لا يجوز طمسها ، ولا حرمان أهلها منها ، إذا وجد من يسيء إليها .

فهل يقول عاقل بنزع الحجاب عن المحجبات إذا وجد فيهن من تتستَّر بحجابها ، للوصول به إلى مآربها وإرواء شهواتها ؟ ! أم هل يقول عاقل بحرمان جميع الناس من قيادة السيارات إذا وجد فيهم من يخاطر بنفسه وسيارته ، ويعتدي على أمن الآخرين وسلامتهم ؟ !

فإذا كان لا يقول بهذا عاقل ، وجب علينا أن نعرف بأنه لا يجوز الاعتداء على حرية المرأة التي منحها الله إياها ، وإنما يجب علينا أن نُعنى بتربية المرأة الصالحة المهذبة التي تعرف حدود حريتها ، وتعلم أن حريتها ليست حرية مطلقة ، وأنها لا يجوز لها بحال أن تستخدمها للإضرار بزوجها أو بيتها أو أمتها ، حتى لا يكون في ذلك طغيانها .

فإذا نشأت المرأة واعية لتلك الحرية ، مدركة لضوابطها وأبعادها ، فأية مشكلة في منحها إياها ؟ وهي لم يخلقها الله لتكون محرومة منها ، وإنما خلقها إنسانة سوية ، لا تكتمل شخصيتها ، ولا يثمر عطاؤها إلا في ظلال حريتها وكرامتها ، ما دامت مطالبة بأن تقف إلى جانب الرجل في السراء وفي الضراء على حد سواء .

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة المؤدبة عندما حسبوك خاتماً في يد الرجل يحركك متى شاء ، ويخلعك متى شاء ، دون أن يكون لك من الأمر شيء ، أو يكون لك إرادة في شيء ، لأنك في نظر بعضهم لستِ إلا كرة

خلقتِ من أجله كي يتسلى بك متى شاء ، ويرميَك حيث يشاء ، فلا تتحركين ولا تسكنين ، ولا تقومين ولا تقعدين ، ولا تأكلين ولا تشربين ، ولا تنامين ولا تستيقظين ، ولا تضحكين ولا تبكين ، بل ولا تفكرين ولا تحلُمين إلا إذا صدرت إليك الأوامر بذلك ، وإلا كنت مع إيمانك شقية متمردة ، ومع أدبك وخلقك باغية معتدية . وكيف لا تكونين كذلك ؟

وقد روي عن قيس بن سعد رضي الله عنه لما رجع من الحِيْرة أنه قال لرسول الله ﷺ : « إني أتيت الحِيرة فرأيتهم يسجدون لَمرْزُبانَ لهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك ، فقال رسول الله ﷺ : أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له ؟ قال : قلت : لا . قال : فلا تفعلوا . لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق . »[1]

وكأن بعضهم لا تحلو له الحياة إلا إذا ملأ بيته صراخاً وضجيجاً ، واستراح إلى أن زوجه قد استرقّها واستعبدها ، وأخضعها لجوره وسلطانه ، لأنه يرى في الظلم مفخَرة ومكرُمة ، ويرى أن رجولته لا تكتمل إلا بهذا الظلم والجور ، فهو يردِّد مع الشاعر قوله :

والظلم من شيم النفوس ، فإن تجد ∴ ذا عِفّة فلِعلّة لا يظلم

ومن هنا ، فإنه يجد لزاماً عليه كلما امتنعت زوجه عن السجود والعبودية له أن يقرع سمعها بحديث السجود ، ليطوِّق به عنقها ، فيخنقها ويحبس أنفاسها ، حتى تذعن له كدابة ليس لها شيء من أمرها ، لتبرهن على أنها المرأة الصالحة التي كملت طاعتها ، فاستحقت رضوان ربها .

ونسي هؤلاء في زحمة غرورهم وكبريائهم كل النصوص المحكمة

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود : (ج٦ ، ٤١ ، ص ١٧٨)

الصحيحة الصريحة قطعية الثبوت والدلالة التي فيها تكريم المرأة ، وتحريم ظلمها واستعبادها ، من مثل قول الله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾(١)

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢)

فالزوجة للسكن ، وكيف يتحقق هذا السكن بعيداً عن المودة والرحمة ؟ بل كيف يتحقق للأسرة استقرارها ؟ وتكون لها سعادتها ، وصاحبها يرعد ويزبد ، ويتهدد ويتوعد ، إلى أن يتحقق له النصر على زوجه ، فيخضعها لجبروته وتسلطه ، حتى لا تفكر يوماً بأن لها حرية في شيء ما دامت تحت سيطرته وفي قبضته .

ونسي هؤلاء أيضاً ما جاء في الصحيحين من مثل قول الرسول ﷺ : « . . . واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خُلقن من ضِلَع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً . »(٣)

جاء في « فتح الباري » التعليق على الحديث بقوله: (فيؤخذ منه أن لا يتركها على الاعوجاج إذا تعدَّت ما طُبعت عليه من النقص إلى تعاطي المعصية بمباشرتها ، أو ترك الواجب ، وإنما المراد أن يتركها على اعوجاجها في الأمور المباحة .)(٤)

أجل ! لقد نسي بعضهم في زحمة غروره وغطرسته أن يترك لامرأته المؤمنة المهذبة حريتها التي أباح الله لها ـ والحديث دائماً عن المؤمنة المؤدبة

---

(١) من سورة البقرة : (الآية / ٢٢٨)

(٢) من سورة الروم : (الآية / ٢١)

(٣) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٦ ، كتاب النكاح ـ ٨٠ ، رقم ٥١٨٦) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٠ / كتاب الرضاع ، ص ٥٨ ، رقم ٦٠)

(٤) فتح الباري : (المرجع نفسه)

المهذبة ـ وأبى أن يعاملها وفق ما جاءه من الصحيح الصريح من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وذلك إرواء لكبريائه ، ولوثة استعلائه .

فالحديث الذي تحدث عن قضية السجود مع أنه لا يبلغ رتبة القرآن الكريم ، ولا رتبة الصحيحين ، ولا يصح دليلاً للاستعباد ، إلا أن بعضهم وجد فيه ذريعة لقهر أزواجهم واستعبادهن ، ولو تحول البيت إلى جحيم لا يطاق بتصرفاتهم ، وجلبوا على الأمة غضب الله ونقمته بظلمهم واستكبارهم .

فللحديث طرق متعددة تحدث عنها العلماء ، منها ما جاء في عون المعبود شرح سنن أبي داود : (قال المنذري : في إسناده شريك بن عبد الله القاضي ، وقد تكلم فيه غير واحد ، وأخرج له مسلم في المتابعات .)[1]

ومنها ما جاء في مجمع الزوائد للهيثمي ، حيث لم تسلم من العلل[2] .

ولكن تبقى لنا رواية الترمذي للحديث ، حيث قال عنه : حديث حسن صحيح ، ويبقى لنا تصحيح ابن حبان له أيضاً[3]

لكن مع التسليم بصحة الحديث ، فإنه لن يبلغ درجة المحكم من كتاب الله تعالى ، ولا رتبة ما جاء في الصحيحين مما هو مقطوع بثبوته ودلالته ، وفيه حق المرأة في أن تحيا الحياة الحرة الكريمة .

أجل ! مع التسليم بصحة الحديث ، فهل يصح أن يستخدم مقرعة يقرع بها الرجل رأس امرأته ، كلما خطر بباله أن يظلمها أو يستعبدها ؟

ثم أين هو الاستدلال باستعباد المرأة في هذا الحديث ؟

إن سياق الحديث يدل على أن رسول الله ﷺ خشي أن يسجد الصحابة له ، لما رأوا الأمم الأخرى تفعل ذلك بعلمائها ، وقد همَّ

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود : (ج٦ / ١٧٩)

(٢) انظر مجمع الزوائد : (ج٤ / باب حق الزوج على المرأة ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٤)

(٣) ابن حبان : (الحديث رقم ١٢٩٠)

بعضهم بذلك ، لولا ما كان من منعه ﷺ لقيس بن سعد رضي الله عنه عندما رجع من الحيرة ، ولمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما رجع من بلاد الشام . فإذا كان رسول الله ﷺ نبي هذه الأمة ، وسيد الخلق أجمعين يرفض السجود له ، وينفر منه ولا يقبله حتى من زوجاته ، مع أنه الزوج الأفضل ﷺ . فهل لغيره يكون السجود ، وتكون العبودية ؟ !

ومن هنا فقد صار لزاماً على كل زوج يؤمن بهذا الرسول الكريم ﷺ أن يتتبع سيرته مع زوجاته ، ليرى حسن معاشرته ومؤانسته ومباسطته وحلمه وصفحه ، حتى وهو في أشد الحالات من حياته الزوجية وأقساها يوم تعرضت حياته الزوجية للخطر ، واجتمع نساؤه عليه ﷺ يطلبن منه النفقة التي لا يقدر عليها ، لأنه اختار أن يكون نبياً عبداً ، وليس نبياً ملكاً ؛ في هذه الحالة لم يكن منه ﷺ إلا أن اعتزل نساءه حتى يقضي الله تعالى في أمره ، فنزل عليه قول ربه بتخيير نسوته ، وهو قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]

فمع المطالبة بالحياة الدنيا ، ومع إرادة زينة الحياة الدنيا ، كانت الملاطفة بالتخيير بين التسريح الجميل ، بعد أن يمتعهن الرسول الكريم ﷺ ، وبين اختيار البقاء مع رسول الله ﷺ ، والرضا بواقعه ونموذج حياته ؛ فكان اختيارهن جميعاً رضي الله عنهن جانب الله ورسوله .

وكان مقتضى التسلط والاسترقاق يقتضي الإجبار والإكراه ، على

---

(١) من سورة الأحزاب : (الآيتان ٢٨ ، ٢٩)

قبول حال رسول الله ﷺ الذي رضينه جميعهن ابتداء حين قبلن الزواج به ﷺ ، وكان نبياً عبداً ، فما الجديد عليهن في حياته ﷺ ؟ لكنه الدرس البليغ المعبر ، لأمة تريد أن تحيا حياة كريمة ، كي تعلم أن الحياة الزوجية لا يمكن أن تقوم على الظلم والقهر والاستعباد ، وإنما لا بد لها أن تقوم على الألفة والرحمة الوداد .

ومن هنا كان على الرجل إذا وقع أمر ما بينه وبين زوجه ، أن يلجأ إلى أهل الإصلاح من أهل الخير ، فهم يملكون مفاتيح ذلك الإصلاح ، فإذا تعذر ذلك ، فإن بيد الرجل أمر الطلاق ــ وإن كان أبغض الحلال إلى الله ــ لأن اللجوء إلى أروقة المحاكم من قبل الزوج لا يزيد الأمر ــ في الغالب ــ إلا تعقيداً ، بل قد يقطع خيط الأمل في أي إصلاح . ولم يكن معروفاً ولا مألوفاً أن يلجأ الرجل إلى القضاء بخصوص زوجه ، ما دام بيده أمر طلاقها ، إذا تعذر على المصلحين إقناعها وردها .

أما المؤمنة المؤدبة ، فإنها إذا ابتليت بمن قل دينه وساء خلقه ، فليس أمامها حين تختار خلاصها إلا اللجوء إلى القضاء ليوقع طلاقها ، ويفسخ عقدها حيث لا سبيل لها إلى ذلك إلا بذلك ، والفرق بين الحالتين واضح ، وكل يعلم من نفسه ما الله به عليم .

قال الله تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾[1]

ولكن ما أجمل أن يرتاح القضاء من مثل هذه المشكلات ، إذا عرف كلٌّ حده فوقف عنده ! ليكون الفراق عند اختياره للضرورة فراقاً قائماً على التسريح الجميل ، والفراق بالحسنى والمعروف ، حتى يبقى الود بين الأسرتين بعد التفريق بين الزوجين ، ولكن أين هذا مما يحدث في أروقة المحاكم اليوم ؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

---

(١) من سورة القيامة : (الآيتان / ١٤ ، ١٥)

وبناء على ذلك ، فإنه لا بد أن تتعمق في أذهان كل الذين يريدون الخير لأنفسهم وبيوتهم وأمتهم ، أن فكرة منع المرأة المؤمنة المهذبة من المباح في حقها وحرمانها من حريتها في ظل ضوابطها ، ليست من حق الرجل على زوجه في شيء ؛ وخير للرجل قبل المرأة أن يتوسع مع زوجه في المباح ، ما دام قادراً عليه ، وبخاصة في هذا الزمان ما دامت زوجه تقيم أمر ربها ، وتطيع بالمعروف زوجها ، وتحسن الرعاية لبيتها ، ولن يطغيها شيء من تلك الحقوق أو يغويها ، وهي تخاف ربها ، وتصون حجابها ، وتعرف حدود حريتها ، وتغار على زوجها وبيتها .

أما أنت يا أيتها المؤمنة حيثما كنت ، فأرجو منك أن لا تترددي في الطاعة بالمعروف لزوجك ، ما دام صاحب خلق ودين ، ولا تعتبري تلك الطاعة ذلاً لك ، ولا منعاً لحريتك ، ولا استعباداً لشخصك ، وإنما هي من أجلك ، لأنه لن يطلب منك إلا ما فيه إسعادك ، ولن يأمرك إلا بما فيه مصلحتك ، حتى وإن خفي ذلك عليك ، وكيف يصدر منه غير ذلك ؟ وقد عرف حقوقك ، وأدرك أنك لباس له كما هو لباس لك ، وأن سعادته وسعادة بيته إنما تكمن في سعادتك ، ولتكن طاعتك طاعة الوداد التي تنمو وتزداد ، كما كانت طاعة الصحب الكرام رضي الله عنهم لنبيهم ﷺ نابعة من أعماق قلوبهم ، ولم يكن هذا النبي الكريم صاحب الطاعة المطلقة ﷺ ، ليشعر مع الذين له حق الطاعة عليهم بأي تكبر أو استعلاء . فهذا هو الصحابي الجليل سواد بن غزية رضي الله عنه يمر به النبي ﷺ يوم بدر وهو خارج عن الصف فيرى أن يسويه بسهم كان بيده ، فيقول سواد رضي الله عنه : لقد أوجعتني يا رسول ، فأقدني منك ــ أي دعني آخذ حقي منك ــ فيناوله الرسول ﷺ السهم ليقتص منه ، ويرفع عن بطنه الشريف ﷺ ، لأنه لم يكن على بطن سواد قميص حين سوى به الصف ، فينهال

سواد رضي الله عنه على بطن رسول الله ﷺ ليشبعها لثماً وتقبيلاً ، فيقول له الرسول ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ فيقول : يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك »(١) . فهل عرف النبي الكريم ﷺ مع حق الطاعة له أي معنى من معاني الترفع أو التكبر ؟ أم هل كان في طاعة الصحب رضوان الله عليهم له أي معنى من معاني الذل أو العبودية ؟ كلا ثم كلا ! إنه لم يكن شيء من ذلك ، لأن الطاعة كانت تقوم على الرحمة والوداد ، فهي تنمو وتزداد ، ولا تعرف القهر أو الظلم أو الاستعباد .

فإياك أيتها المؤمنة حيث كنت أن تظلمي نفسك قبل ظلمك لزوجك وأمتك ، وذلك عندما تتمردين على زوجك في كل ما يصدر إليك ، وتترفعين عن الاستجابة لكل ما يطلب منك ، فتفسدي عليك عيشك ، وتهدمي بيت الزوجية الذي فيه أنسك ، وتجلبي الخزي والعار لأهلك وقومك ، وتعملي على تمزيق الأمة بعملك وسوء تصرفك .

فالله الله في نفسك ، وفي بيتك ، وفي أمتك !

---

(١) انظر سيرة بن هشام : (ج٢ / ١٩٥ ، ١٩٦)

هل التعليم للمرأة يغويها ؟

هذا هو السؤال الذي لا بد من الإجابة عليه بكل وضوح ، ليعلم مدى تأثير تعليم المرأة على الحياة الزوجية ، لأني سمعت بعضهم وهو من أهل العلم وقد تدخل في مشكلة بين زوجين كانت الزوجة متعلمة يقول : المشكلة تكمن في كون المرأة متعلمة ، بمعنى أنه لو كانت المرأة جاهلة ، لما كانت هناك مشكلة ، ولانقادت المرأة لزوجها على أية حال ، فآلمني هذا الكلام ، لما يترتب عليه من مخاطر ، ولما يجره على النساء من بلاء ، لأنه يدفع على الإبقاء على جهلهن ، حتى تجد الواحدة منهن بجهلها من يتزوجها ، وبخاصة إذا كان الخاطب ميسور الحال ، لا يهمه من أمر المرأة إلا أن تعرف قدراً يسيراً من القراءة والكتابة ، يمكن أن ينفع مع تربية الأولاد ليس غير ، فإذا كانت المرأة في نظره فوق ذلك علماً ودراية ، كان ذلك سبباً في نشوزها وهدم بيتها .

والمسألة في نظري فيها مغالطة كبيرة ، ولا بد من التوضيح والبيان .

وإذا كنا قد توارثنا هذه الحكمة فتعلمناها وعلّمناها وهي : العلم نور والجهل ظلام . فهل كانت تلك الحكمة تخص الرجال دون النساء ؟ وهل كان على النسوة أن يتعلمنها معكوسة ، ليبقين على جهلهنّ ، تودداً لأزواجهن ؟ وهل هذا يعني أن نفهم النصوص الصحيحة الصريحة على أنها تخاطب الرجال دون النساء ؟

من مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1] ، بمعنى أن على المرأة أن تقول : رب زدني جهلاً . أو أن نفهم قوله سبحانه : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[2] ، بمعنى أن الأمر في حق النساء

(١) من سورة طه : (الآية / ١١٤)

(٢) من سورة المجادلة : (الآية / ١١)

ينعكس ليصير : يرفع الله . . . والذين أوتوا الجهل منكن درجات . أو أن نفهم قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[1] ، على أن الأمر بحق النساء ينقلب ليكون : إنما يخشى الله من النساء الجاهلات . أو أن نفهم قوله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . »[2] ، على أنه في حق النساء ينقلب ليصير : من يرد الله بها خيراً يجهلها في الدين . أو أن نفهم قوله ﷺ : « ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة . »[3] ، على أن « من » وهي من ألفاظ العموم لا تشمل النساء ، ليصير الأمر بحقهن : ومن سلكت طريقاً تلتمس فيه علماً ، سهل الله لها به طريقاً إلى جهنم . كل ذلك يجب أن نفهمه على تلك الصور ، لأن العلم للمرأة يغويها ويطغيها في نظر بعضهم . سبحانك ربي هذا بهتان عظيم !

ولعل الشبهة دخلت على أناس من قوله ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل مسلم . »[4] ، أي أنه ليس بفرض على المسلمة ، فإذا كان الأمر كذلك في نظرهم ، فلا بأس أن يتبعوا السيئة بالسيئة فيقولوا : بل هو حرام على المسلمة ؛ ونسي هؤلاء أو تناسوا بأن لفظة « مسلم » هي لفظ جنس ، وهي تشمل الذكر والأنثى سواء بسواء .

اللهم علمنا ما ينفعنا رجالاً ونساءً ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً وعملاً وفقهاً في الدين يا رب العالمين .

---

(١) من سورة فاطر : (الآية / ٢٨)

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١ : علم ـ ١٣ ، رقم ٧١) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٣ / إمارة ، ص ٦٧ ، رقم ١٧٥)

(٣) صحيح البخاري : (كتاب العلم ـ ١٠) ، وصحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٧ / كتاب الذكر والدعاء ـ ص ٢٠ ، رقم ٣٨)

(٤) رواه ابن ماجه : (مقدمة / ١٧) ، وهو في صحيح الجامع الصغير : (ج٢ / رقم ٣٩١٣ ، ٣٩١٤)

العلم صفة للحكيم العليم سبحانه ، ولا يمكن أن يكون شؤماً في حق المرأة .

قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾(١)

وحسب هذا العلم رفعة للرجال والنساء على حد سواء أن الله سبحانه تفضل به على رسوله ﷺ ، فقال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾(٢)

وحسبه شرفاً ونبلاً أن الله عندما شهد على نفسه بالوحدانية أشهد معه الملائكة المقربين ، ولم يذكر النبيين ، مكتفياً بقوله ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ﴾ وذلك من أعظم التكريم للعلم والعلماء . قال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾(٣)

ويكفي هذا العلم فخراً أن يرتفع بصاحبه حتى ولو كان حيواناً ؛ إذ الحيوان الجارح المعلم يرتفع ليصير صيده حلالاً بعد أن كان مع جهله نجساً حراماً .

قال الله سبحانه : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾(٤)

فكيف يكون العلم في حق هؤلاء جميعاً عزاً وكرامة ، بما في ذلك

---

(١) من سورة الأنعام : (الآية / ٣)

(٢) من سورة النساء : (الآية / ١١٣)

(٣) من سورة آل عمران : (الآية / ١٨)

(٤) من سورة المائدة : (الآية / ٤)

الحيوان ، ثم يكون في حق المرأة ذلا ومهانة ؟ فسبحان الله العظيم !

إن بعض الناس لا يزال يخلط بين تعليم المرأة المنضبط بضوابطه الشرعية والأخلاقية ، وبين بعض الصور المخزية من تعليم المرأة التي تنتشر في بعض البلدان ، إذ تقوم على الاختلاط المحرم ، أو على عدم الستر والحشمة للمتعلمات ، أو على المفاسد التي يندى لها جبين الحر فضلاً عن المؤمن الغيور .

لكن هذا الخلط يجب أن يتوقف عندما يكون التعليم للمرأة المؤمنة المحجبة المؤدبة المهذبة .

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة المحجبة المؤدبة عندما حرموك حقك من التعليم ، وحسب الذين حبسوك ومنعوك أنهم قد انتصروا في معركتهم ، وقدموا خيراً لأنفسهم وأمتهم ، وما درى أولئك أن النسوة في عهد النبي ﷺ قد اجتمعن وطلبن من رسول الله ﷺ أن يعلمهن ففعل .

عن أبي سعيد الخدري ﷺ : قالت النساء للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك ، فوعدهن يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن ، فكان فيما قال لهن : « ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار . » قالت امرأة : واثنين ؟ قال : واثنين .[1]

ظلموك أيتها المرأة المحجبة عندما حسبوا أن علمك يجب أن يكون محدوداً حتى لا يغويك ، وما درى أولئك أن السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كانت على علم غزير ولم يكن ذلك ليغويها .

جاء في كتاب : « الإصابة في تمييز الصحابة » : (عن مسروق رأيت مشيخة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأكابر يسألونها عن الفرائض ، وقال عطاء بن أبي رباح : كانت عائشة أفقه الناس ،

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١ / كتاب العلم ـ ٣٦ ، رقم ١٠١)

وأعلم الناس ، وأحسن الناس رأياً في العامة .)[1]

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة المؤدبة عندما حرموك العلم النافع ، حتى لا تكوني كأحدهم في علمه وفضله ، ظناً منهم أنك إذا بلغت تلك المنزلة الرفيعة ، فإنك تسيئين إلى أنوثتك ، وتسيرين في طريق غَوايتك ؛ ونسوا أو تناسوا أن أم المؤمنين عائشة ــ رضي الله عنها ــ كانت من أعلم أهل زمانها . فهل كان لهذا العلم الغزير من أثر في طغيان تلك السيدة الفاضلة ــ رضي الله عنها ــ ؟

جاء في كتاب « سير أعلام النبلاء » : (وقال الزهري : لو جُمع علم الناس كلّهم ، وأمهاتِ المؤمنين لكانت عائشة أوسعهم علماً . . .)[2]

فهل تكون المرأة ظالمة لنفسها أو بيتها أو أمّتها ؛ إذا جعلت قدوتها زوجة نبيها السيدةَ عائشة ــ رضي الله عنها ــ ؟

ظلموكِ أيتها المرأة المؤمنة المهذبة عندما حسِبوا أنك يمكن أن تخوني الأمانة العلمية إذا ارتقيت في سلم العلم درجات عاليات ، فيضيع العلم بسببك ، فأولى لك أن تخلي الساحة لأهلها ، وتعطي القوس باريها ، لتسلم للعلم مسيرته الخيِّرة ؛ ونسوا أو تناسوا أن المرأة المؤمنة الفاضلة التي كان الحديث من أجلها لا تسيء إلى العلم لكونها أنثى ! بل ربما سجل تاريخ الرواة أنصع الصفحات في حقها ، حيث كانت راوية أمينة لا تعرف الوضع ولا التدليس .

قال الإمام الذهبي رحمه الله في كتابه « ميزان الاعتدال » الذي خرَّج فيه أربعة آلاف متَّهم من الرواة الرجال ، قال معقباً على ذلك : (وما علمتُ من النساء من اتُّهمت ، ولا من تركوها .)[3]

---

(١) ابن حجر : (ج٨ / ١٤٠)

(٢) الذهبي : (ج٢ / ١٩٩)

(٣) ميزان الاعتدال : (ج٣ / ٣٩٥)

فأية شهادة حق وعدل أعظم من هذه الشهادة تحملها المرأة المؤمنة !

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة المحجبة . . المؤدبة المهذبة عندما حبسوك على العلم الذي تتعلمين فيه بعض أمور دينك من صلاة وصوم وحيض ونفاس دون أن يكون لك أي حق في التطلع إلى ما وراء ذلك من العلوم النافعة ، لأنه من حق الرجال فقط ، وحرام عليك أن تتعلميه ، أو أن تنافسيهم فيه ، حتى ولو كان يتناسب مع أنوثتك ، لأن هذا يطغيك ويغويك ؛ ونسوا أو تناسوا أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان لديها علم واسع في كثير من العلوم والمعارف ، ولم يكن ذلك ليغويها أو يطغيها .

جاء في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » : (وقال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة .)[١]

ظلموك أيتها المؤمنة المحجبة . . المؤدبة المهذبة عندما أباحوا لك أن تتعلمي ، ولكن دون أن يكون لك حق في تعليم أحد ، بل التعليم من حق الرجل فقط ، حتى ولو كان هذا التعليم لبنات جنسك ، وكأنها جريمة نكراء أن تكون المرأة مفسرة ، أو محدثة ، أو فقيهة ، أو طبيبة ؛ ونسوا أو تناسوا أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت معلمة العلماء ، ومؤدبة الأدباء حتى غدا بيتها جامعة .

جاء في كتاب « السيدة عائشة » : (ويمم طلاب العلم وشداة المعرفة وجوههم قبل الحجرة المباركة حتى غدت أول مدارس الإسلام ، وأعظمها أثراً في تاريخ الفكر الإسلامي ، وقد تخرج من هذه المدرسة كبار علماء التابعين وساداتهم ، فكانت السيدة بحق معلمة العلماء ومؤدبة الأدباء . . . وأصبحت الحجرة الشريفة مدرسة الحديث الأولى ، فقصدها طلاب العلم من مشارق الأرض ومغاربها . . . لذلك كان عدد الرواة

(١) ابن حجر : (ج٨ : ١٤٠)

عنها كبيراً أوصلهم الذهبي في النبلاء إلى نحو المائة .)[1]

ولكن إذا كانت السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ أما للمؤمنين ولها أن تعلمهم ، لأنها بمنزلة أمهم التي ولدتهم ، فنحن لا نطالب المرأة المؤمنة اليوم أن تفعل ما فعلت أم المؤمنين . ولكن نطالبها بأن تتحمل مسؤوليتها في تعليم بنات جنسها في ظل الضوابط الشرعية ، ونذكر الآباء والأزواج بضرورة مساعدتهن على ذلك ، فهو خير ألف مرة من أن يقوم الرجال بتعليم النساء ، لما لا يخفى على اللبيب من الفتنة ، وبخاصة في زماننا . وفي ذاكرتنا نماذج من هذه الفتنة ، لا نحب أن نقف عندها ، لأن أقلها انتهى بالزواج ، ولا ندري عن مراحله كيف تمت ؟ إلا أنها أثارت كثيراً من إشارات الاستفهام حولها ، ونحن نكتفي بهذه الإشارة إليها ؛ وما ذاك إلا لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم .

عن صفية بنت حيي أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ قالت : « كان رسول الله ﷺ معتكفاً ، فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معي ليقلبني ــ أي ليودعني ــ وكان سكنها في دار أسامة بن زيد ، فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ : على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي . فقالا : سبحان الله يا رسول الله . قال : إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً . أو قال : شيئاً . »[2]

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة المؤدبة المحجبة عندما لم يوفروا لك سبل العلم أخذاً وعطاء على شكل تحفظين فيه دينك ، وتصونين فيه عرضك ، وتحمين فيه كرامتك ، ولو فعلوا لتخلصت الأمة من كثير من متاعبها ،

---

(١) السيدة عائشة لعبد الحميد طهماز / ١٨١ ــ ١٩٢ ، وهو كتاب المطالعة الإضافية المقرر على طالبات الثالث الثانوي والثالث معاهد المعلمات في المملكة العربية السعودية . ط ١٤٠٩ هـ ــ ١٩٨٩ م .

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٦ / كتاب بدء الخلق ــ ١١ ، رقم ٣٢٨١)

ولسدت باباً عظيماً للفتنة ، كان يمكن أن تلجه المرأة عندما يتم تعلمها على يد الرجل في أية مرحلة من المراحل التعليمية ، أو عندما يكون تعليمها للرجل كذلك ، أو عندما تضطر المرأة إلى دخول المستشفى لتلقي العلاج ، أو لإجراء عملية جراحية ، فلا تجد من حولها بنات جنسها ، وإنما تجد ذئاباً ينتظرونها ، وهي في حالة لا تدري شيئاً من أمرها ، سوى أنها سألت ربها قبل أن تدخل مشفاها أن يحفظها ويرعاها .

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة المؤدبة عندما أرادوا أن يحجبوا عن ناظريك تلك الصور المشرقة التي تلألأت غرة في جبين تاريخ أمتك ، فسطرت أنصع الصفحات للمرأة المؤمنة متعلمة وعالمة ومعلمة ؛ وذلك كي يبقوا على جهلك وتخلفك ، ويسهل عليهم بزعمهم قيادك ، ثم ليطلقوا العنان لأعداء أمتك ، ويفتحوا لهم أبواباً من الشر للإساءة إلى دينك ، وللنيل من حجابك وشرفك وخلقك .

لكن الله الذي يأبى إلا أن يتم نوره هيأ لك العقول النيرة ، والأقلام النظيفة كي تخرج بعضاً من تلك الكنوز المدفونة لترى النور ، فيبصرها كل ذي بصيرة ، وتسقط كل التهم والأباطيل التي حاول أعداء الإسلام المتفرنجون أن يلحقوها بدينك ، ويصلوا عن طريقها إلى إخضاعك وإغوائك وإذلالك .

إن تاريخ المرأة المؤمنة في الإسلام تاريخ مشرف يمكن للمرأة المؤمنة المعاصرة أن تفتخر به وتعتز . فلقد نقلت إلينا كتب الصحاح أخبار كثير من الصحابيات العالمات الفاضلات ، وفي « طبقات ابن سعد » كان المجلد الثامن والأخير خاصاً بترجمة النسوة العالمات الفاضلات ، وفي كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر جاء المجلد الرابع والأخير بجزأيه السابع والثامن ، ليترجم للكنى وللصحابيات العالمات الفاضلات ، وفي كتب التراجم الأخرى تراجم لنساء عالمات فاضلات ، وقد جمع أبو عبد

الرحمن السلمي محمد بن الحسين المتوفى سنة ٤١٢ هـ كتاباً خاصاً بالنسوة المتعبدات ذكر فيه أخبار انتفاع كثير من التابعين وغيرهم بهن .

جاء في الكتاب : (وكان سفيان الثوري رحمة الله عليه ، يسألها ـ أي : رابعة العدوية ـ عن مسائل ، ويعتمد عليها ، ويرغب في موعظتها ودعائها .)[1]

فإذا جئنا إلى الإمام ابن عساكر رحمه الله المتوفى سنة ٥٧١ هـ وجدنا أن صاحب طبقات الشافعية يذكر له من شيوخه بضعاً وثمانين امرأة حيث يقول عنه : (وعدة شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة .)[2]

وجاء في آخر كتاب « بغية الوعاة » للسيوطي ذكر تاريخه العلمي الذي ينص فيه على أنه قرأ على عالمات فاضلات ، فكن أكثر من عشر سيدات كان لهن شرف تعليمه وإرشاده .[3]

فإذا جئنا إلى عالم معاصر للسيوطي ، وهو الإمام السخاوي ، وجدنا أنه يخص السيدات العالمات في زمانه بجزء أخير من كتابه « الضوء اللامع » ، وتخصيص هذا الجزء للسيدات يدل بوضوح على أن أكثرهن قد برزن في الميدان العلمي .[4]

وفي عصرنا الحاضر فإننا نجد بحمد الله صوراً مشرقة ونماذج مضيئة لتعليم المرأة المؤمنة ، وذلك ضمن مجالاتها واستعداداتها في العلوم الشرعية وغيرها .

فالمرأة المؤمنة المؤدبة المحجبة تضرب أروع الأمثلة وهي تتعلم أو تعلم ،

---

(١) ذكر النسوة المتعبدات / ٢٨ ، تحقيق الدكتور محمود محمد الطناحي .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي : (ج٧ / ٢١٦) ، ط دار إحياء الكتب العربية ، الطبعة الخامسة .

(٣) انظر بغية الوعاة : (ج٢ / ٣٩٦ ـ وما بعدها)

(٤) انظر كتاب إسلاميات للدكتور محمد رجب البيومي : (ج٢ / ٢٩)

وتتحدى أنظمة علمانية يؤلمها أن تجد المرأة المؤمنة كذلك .

نسأل الله أن يديمها وينميها ، لتشمل دوائر أوسع من مجالات الحياة الفاعلة ، وتكون نموذجاً يحتذى ، حتى لا يجد دعاة التحرر والانفلات مدخلاً للطعن بديننا على أنه يمنع المرأة المحجبة المؤدبة من القيام بأي عمل فاعل منضبط .

جاء في كتاب « فتاوى مصطفى الزرقا » قوله ــ رحمه الله ــ عندما سئل عن قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ هل هذا الحث على العلم موجه للرجل وحده أم للرجل والمرأة ؟ فأجاب ــ رحمه الله ــ : (العلم الذي تفضل الله به على الإنسان وأوجبه عليه ، وفضله به ، وجعل القدر الذي يتوقف عليه أداء واجباته الدينية والدنيوية فريضة عينية على كل مكلف ليس خاصاً بالرجل ، بل يشمل الرجل والمرأة .)[1]

ولكن حذار أيتها المؤمنة المؤدبة أن تنخدعي بعلمك ، فتتكبري وتتجبري ، فلا يعجبك والد رباك ، ولا أم ولدتك ، ولا تقومين بحق لزوج يرعاك ، ولا تعرفين أية مسؤولية تجاه أطفال ينتظرون لمسة من عطفك وحنانك ، فتضري بذلك نفسك قبل أن تضري أهلك وأمتك .

---

(١) فتاوى مصطفى الزرقا ٢٤٤ .

هل لناقصات العقل والدين رأي يُسمع ؟

قد يبدو هذا السؤال للوهلة الأولى عجيباً وغريباً وساذجاً ، إذ كيف يمكن أن يكون الرأي صائباً وثاقباً مع نقصان عقل صاحبه ، وقلة دينه ؟

فالرأي الحصيف لا يصدر إلا عن عقل راجح وذهن لامع ؛ فإذا كان العقل مهزوزاً أو مختلاً ، فأنى له أن يقدم رأياً سديداً ، أو نصحاً رشيداً ؟

والمرأة في هذا المقام هي محور هذه القضية ، فبعض النساء تطالعنا بمواهبها وذكائها في كثير من مواقفها على مر العصور ؛ وفي عصرنا الحاضر تبرز بعض الطالبات لتشاطر الرجل تفوقه ، وتنافسه في تخصصه الذي يُتوقع أن يكون متميزاً فيه ، فتقف مكافئة له ، بل ومنافسة في أغلب المراحل الدراسية ، حتى عندما تكون المناهج قريبة من تفكير الرجل ، ومنسجمة مع طبعه وميوله ، فإنها تستحضر كل ما ذاكَرَته بدقة بارعة ، تدعو للدهشة من إجابتها ، مقارنة بإجابة زملائها الذين يُمتحنون بمثل ما تُمتحن به . وهذا ليس في الدراسات النظرية فحسب ، وإنما في الدراسات التطبيقية ، كالفيزيائية والكيميائية والميكانيكية وغيرها ؛ وإن مما يزيد في الدهشة والغرابة أن يكون أبناء الأسرة الواحدة ، يحظون بقدر متكافئ من العناية والرعاية ، يتفوق فيهم بعض البنات على إخوانهم الذكور في المستوى الدراسي نفسه ، والمواد الدراسية نفسها ، رغم أن البنات يقمن بأعمال منزلية يُعفى منها الذكور عادة .

أفلا يدعونا هذا كله إلى أن نقف من هذه الظاهرة وقفة تأمل صادقة وجادة ؟ لنصل إلى الحقيقة في أمرها ، أو نقترب منها على أقل تقدير ، ونحن نطالع في الأحاديث الصحيحة ما يفيد ظاهرها التناقض مع هذا الواقع ، لما فيها من الإشارة إلى نقص عقل المرأة ودينها .

فلا بد والحالة هذه من الوقوف على تلك الأحاديث الصحيحة ؛

ليعلم منها أنها لا تتعارض مع وجود بعض النسوة الفاضلات في كل عصر يكن صويحبات قول سديد ورأي رشيد ، ولا نقول هذا من قبيل رد الفعل لما يقوله أعداء الإسلام ، إذ لا يعنينا أن نهتم به في هذا المقام ، بقدر ما يهمنا أن نوضح ونبين تلك الحقيقة ، ليزول معها كل لبس ، وتطمئن المرأة المؤمنة المعاصرة إلى صحة معتقدها ، وسلامة دينها ، وتكون على يقين بأنها لن تكون أحسن حالاً في أي شأن من شؤونها بعيداً عن هذا الدين وتعاليمه . فلا تفتن بما يروجه المبطلون ، ولا تخدع بما يزينه الحاقدون الماكرون .

جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يا معشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة : ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن . قالت : يا رسول الله ، وما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ، وتمكث الليالي ما تصلي ، وتفطر في رمضان ، فهذا نقصان الدين . »(1)

هذا الحديث الصحيح بكل رواياته المتعددة الصحيحة يتحدث كما هو واضح عن المرأة التي تكثر اللعن ، وتجحد حق الزوج ، وهما الصفتان الغالبتان في عامة النساء ؛ ولما كان حديثنا دائماً ، ودفاعنا أبداً عن المرأة المؤمنة . . المؤدبة المهذبة ، وهي التي سلم الله لسانها من اللعن ؛ لأنها لم تعرفه مدة نشأتها ، ولم تألفه أثناء تربيتها ؛ وهي مع هذا ترعى حرمة زوجها ، وتخطب وده ما أمكنها . فأين موقع هذه المؤمنة الطائعة من هذا

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج٢ إيمان ، ص ٦٦ ، رقم ١٣٢) واللفظ له ، وصحيح البخاري مع الفتح : (ج١ / حيض ـ ٦ ، رقم ٣٠٤) ، (ج٣ / زكاة ـ ٤٤ ، رقم ١٤٦١) ، (ج٥ / شهادات ـ ١٢ ، رقم ٢٦٥٨)

المعشر للنساء اللاتي يكثرن اللعن ويكفرن العشير ؟ وهل هذا التعميم يشمل أي امرأة دون استثناء ، بحيث يمتنع أن توجد امرأة فاضلة عاقلة ؟

فالحديث عام مطلق في حق النساء ، اللواتي غلب عليهن هذا الوصف ، حيث هو الأعم الغالب في حق النساء ، ولا يشمل كل امرأة مهما ارتقت في إيمانها ، وسمت في عبادتها وطاعتها ، بحيث تعدم رأياً صائباً .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلا حاجة عندئذ أن نذهب مع بعضهم الذين جعلوا العقل في الحديث الشريف بمعنى الدية ، كما هو مفهومه في بعض الأحاديث الأخرى من مثل قوله ﷺ : « عقل الكافر نصف عقل المؤمن »[1] ، أي : ديته ، وكذلك قوله ﷺ : « عقل أهل الذمة نصف عقل المسلمين ، وهم اليهود والنصارى »[2] ، أي : ديتهم ، لأن هذا المعنى مردود عليه ، كما جاء ذلك عند شرح الحديث في فتح الباري حيث جاء فيه : (وحكى ابن التين عن بعضهم أنه حمل العقل هنا على الدية وفيه بعد . قلت : بل سياق الكلام يأباه .)[3]

ولا حاجة كذلك أن نقف حيارى أمام ما كان من أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، عندما أشارت على رسول الله ﷺ في صلح الحديبية برأي صائب كان فيه نجاة المؤمنين ، حتى تدفعنا تلك الحيرة إلى أن نجعل هذا الرأي الصائب خاصاً بأم سلمة ـ رضي الله عنها ـ من دون المؤمنات ، بدعوى أن هناك حديثاً صحيحاً يمنع أن يكون للمرأة رأي صائب ، لأنها ناقصة عقل ودين .

ولعلنا نميل مع من يرى أن شهادة المرأة كانت نصف شهادة الرجل ، في هذا الموضع من آية الدين ، وذلك بسبب نسيانها ، وهذا النسيان أمر طبيعي

---

(١) أخرجه النسائي : (قسامة / ٣٨)

(٢) المرجع نفسه : (قسامة / ٣٨) ، وابن ماجه : (ديات / ١٣) ، وأحمد : (ج٢ / ١٨٣)

(٣) ابن حجر : (ج١ / ٤٠٦)

في حق المرأة في مثل معاملات الدين التي لا تعنى بأمرها ، ولا تدخل ضمن اهتماماتها .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ . . . أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾(١)

فإذا كانت الشهادة على قضية هي من اختصاص المرأة مما لا يطلع عليه الرجل قبلت شهادتها من دون الرجال ؛ ولو أن الطعن كان في ذاكرتها مطلقاً ، لبقيت الشهادة في حقها كما هي ، حيثما كانت شاهدة .

جاء في كتاب « الفقه الإسلامي وأدلته » : (وقال المالكية والشافعية والحنابلة : تقبل شهادة النساء منفردات فيما لا يراه رجال غالباً . . . واختلفوا في تعدد المشترط في شهادة النساء منفردات : فقال الحنفية والحنبلية : تقبل شهادة امرأة واحدة عدل . وقال المالكية : يكفي امرأتان . وقال الشافعية : ليس يكفي أقل من أربع نسوة .)(٢)

فالقضية قضية اهتمامات ، وليست طعناً في القدرات والكفاءات ؛ بل لعل المرأة كثيراً ما تحدّث زوجها عن قضايا لا تهمه ، فلا يذكر منها إلا القليل ، في وقت تتذكرها هي بمنتهى الدقة ، مع أنه عايشها كما عايشتها .

وعلى كل حال ، فإننا قد لا نحتاج إلى كل هذه التبريرات لعقل المرأة ، إذا عرفنا أن الحديث الشريف إنما يتحدث عن السمة البارزة لدى أغلب النساء ، وليس معناه أن كل امرأة بعينها هي كذلك إلى أن تقوم الساعة ، مما يوقع في الحرج عند تفسير الصور المشرقة التي كانت لبعض المؤمنات الفاضلات ، وكان لهن فيها آراء سوية ناضجة تدل على وفرة عقولهن ، وسداد رأيهن .

---

(١) من سورة البقرة : (الآية : ٢٨٢)

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي : (ج٦ / ٥٧٢) ، نقلاً عن المبسوط : (ج١٦ / ١١٢) ، فتح القدير : (ج٦ / ٦) ، البدائع : (ج٦ / ٢٧٧) ، بداية المجتهد : (ج٢ / ٤٥٣) ، المهذب : (ج٢ / ٣٣٢) ، المغني : (ج٩ / ١٤٧ ، وما بعدها ١٥٥)

جاء في كتاب « كشف الخفاء ومزيل الإلباس » ما يفيد أن رأي أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ يصلح دليلاً لاستشارة المرأة الفاضلة ، بينما ذهب إمام الحرمين ـ رحمه الله ـ إلى تخصيص أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ بهذا الرأي الصائب دون سواها ، وهذا نص ما جاء في الكتاب : (كيف وقد استشار النبي ﷺ أم سلمة في صلح الحديبية « فصار دليلاً لاستشارة المرأة الفاضلة » ولفضل أم سلمة ووفور عقلها ، حتى قال إمام الحرمين : لا يعلم امرأة أشارت برأي فأصابت إلا أم سلمة ، لكن اعترض عليه بابنة شعيب في أمر موسى عليهما الصلاة والسلام .)(١)

ومعلوم أن ابنة شعيب عليه السلام أشارت على أبيها بأن يستأجر موسى عليه السلام ، فكان رأيها صائباً ، كما قال تعالى حكاية عنها : ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾(٢)

فللنسوة الفاضلات آراء صائبة ، بدليل رأي أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ ، ورأي ابنة شعيب عليه السلام ، على ما سنبينه إن شاء الله .

أما ما كان من بعض الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة أو الواهية جداً ، والتي تحض على رفض رأي المرأة ومخالفته ، فلا تصلح للاحتجاج بها ، لأنها لا تبلغ رتبة ما ثبت من آراء صائبة للمؤمنات الفاضلات ، بل وتتعارض معه .

وقد أشار صاحب « كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » إلى بعض هذه الأحاديث فقال : (« شاوروهن وخالفوهن » قال في المقاصد : لم أره مرفوعاً ، ولكن عند العسكري عن عمر رضي الله عنه أنه قال : خالفوا النساء فإن في خِلافـهنّ البركة ، نعم أخرج

---

(١) العجلوني : (ج٢ / ٣)

(٢) من سورة القصص : (الآية / ٢٦)

ابن لال ومن طريقه الديلمي بسند فيه ضعف جداً مع انقطاع . عن أنس رضي الله عنه مرفوعا : لا يفعلن أحدكم أمراً حتى يستشير فإن لم يجد من يشيره فليستشر امرأة ثم ليخالفها ، فإن في خلافها البركة ، وروى العسكري عن معاوية رضي الله عنه أنه قال : عودوا النساء : لا ، فإنها ضعيفة إن أطعتها أهلكتك ، . . . وروى القضاعي والعسكري والديلمي وغيرهم بسند ضعيف عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً : طاعة النساء ندامة ، وأخرج أحمد والعسكري وغيرهما عن أبي بكرة مرفوعاً : هلكت الرجال حين أطاعت النساء .)[1]

وأمام هذه الأقوال التي تشعر المرأة معها أنها مظلومة أو مهانة ، لا يمكن أن يقوم البيت على الألفة والرحمة والوداد ، كما أراد الله له أن يقوم . بل إن ذلك يساعد على نشر الكيد والأحقاد ، وعندها فلا تستشعر المرأة كرامتها ، ولا تتحمل مسؤوليتها ، لأنها ملوثة في أنوثتها ، مهزوزة في شخصيتها ، مضطربة في تفكيرها ، ممسوخة في عقلها ، وهي كذلك دائماً وأبداً دون استثناء لأية واحدة من بنات جنسها . وما وراء ذلك إلا حرمان المرأة من أن يسمع لها قول ، أو يطاع لها أمر ، مهما علت رتبتها في دينها ، وكان لها من الآراء ما يدل على كفاءتها وعبقريتها .

إن الوقائع الثابتة في تاريخ المرأة المشرف تثبت رجاحة عقل المرأة في كثير من المواقف ، وليست أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ وحيدة في هذا العالم بالرأي الصائب ، ولسوف نذكر من ذلك ما يتسع له المقام على سبيل الاستشهاد لا الحصر ، وذلك كله حتى تعتز المرأة المؤمنة بالانتساب إلى دينها ، ولا تقف عاجزة أمام ما يروجه أعداء الإسلام ودعاة التحرر عن ظلم الإسلام للمرأة ، ليحملوها على أن تخلع ما تبقى لديها

(١) المرجع نفسه .

من دينها ، وتنطلق لاهثة وراء دعاة تحررها ، ظناً منها أنها سوف تجد من ينقذها ، فإذا هي تجد ذئاباً تعوي من حولها ، لا تريد خيرها وسعادتها ، وإنما تريد افتراسها ومهانتها .

فأي ظلم للمرأة المؤمنة المؤدبة أعظم من أن تحرم من حقها في إبداء رأيها ، حتى فيما يخصها ، أو يخص أهلها وأبناءها ؟

وأي ظلم للأمة أفظع من أن يمتنع الرجل من استشارة المرأة للتعرف على رأيها ، ولو في داخل بيتها ، للوصول إلى أفضل السبل المؤدية إلى النهوض بهذا البيت ، بهدف إصلاحه وعمارته ، وتحقيق أهدافه ، وبخاصة عندما تمتلك المرأة المؤمنة الأهلية بغزارة علمها ، ورجاحة عقلها ؟

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة العالمة الفاضلة عندما اتهموك ، وجعلوا استشارتك لمخالفتك ليس غير ، بحيث لا تشيرين بأمر إلا وجبت مخالفته ، فحرموا البلاد والعباد من خيرك وفضلك وحسن رؤيتك ؛ والحوادث الشهيرة الثابتة للمرأة المؤمنة في القرون المفضلة تؤكد سمو المرأة ورفعتها ، وتثبت أنها كانت تدلي برأيها ، لا لتكون مخالفتها ، وإنما ليؤخذ هذا الرأي ، فيوضع في مكانه المناسب ، ليجد كل الرضا والقبول .

فهذه أم المؤمنين خديجة ــ رضي الله عنها ــ تبرهن في كثير من مواقفها على رجحان عقلها ، وصواب رأيها ، بما يعجز كثير من الرجال عن مثله .

جاء في صحيح البخاري في حديث بدء الوحي : « . . . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ــ رضي الله عنها ــ ، فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ،

إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل . . . »[1]

والذي يستدعينا أن نقف عنده هنا هو إخباره ﷺ لزوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ بما حصل له وقوله : « لقد خشيت على نفسي » إذ لنا أن نتساءل : لماذا أخبرها ﷺ بما حدث له ؟ ألا يدل ذلك على أنه ينتظر منها تصرفاً مرضياً يتناسب مع عقلها الكبير ؟ وإلا كان كلامه وإخباره ﷺ عبثاً لا يليق به .

ثم إنها ـ رضي الله عنها ـ تكون عند حسن الظن ، فتطمئن نفسه ، وتثبت فؤاده بكلام ينم عن بعد نظرها وسداد رأيها : « كلا والله ما يخزيك الله أبداً . . . » مع تعليل ذلك كله بأدلة مقنعة ، ثم هي ـ رضي الله عنها تنطلق به ﷺ لتتبع القول بالعمل بتصرف حكيم يدل على عقلها الكبير ، فيستجيب لها وينطلق معها لقناعته ﷺ بما انطوت عليه تلك المرأة الفاضلة ـ رضي الله عنها ـ من عقل ورأي وفطنة .

وهكذا كان شأن هذه المرأة العاقلة ـ رضي الله عنها ـ مع رسول الله ﷺ تثبته وتهون عليه ما يلحق به من الأذى ، وهو ﷺ مطمئن لطمأنتها ، مرتاح لعقلها وتدبيرها .

جاء في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » : (وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ، وصدقت بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان لا يسمع شيئاً يكرهه من الرد عليه ، فيرجع إليها تثبته وتهون عليه أمر الناس .)[2]

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١ / بدء الوحي ـ ٣ ، رقم ٣)

(٢) ابن حجر : (ج٨ / ٦٠)

فهل امتنع رسول الله ﷺ عن الأخذ برأي خديجة ـ رضي الله عنهـا ـ وهي من صنف النساء لا محالة ، أم أنه كان يأنس لرأيها ، ويأخذ بمشورتها ؟ وعلى هذا فليس لأحد أن يرد رأي المرأة المؤمنة ، لمجرد أنها امرأة ، لأن ما جاء بحقها من نقصان العقل والدين إنما هو حكم الأعم الأغلب . ولربما كان للمؤمنة الفاضلة عقل ينفع ورأي يسمع ، ولا تعارض بين هذا وذاك .

فإذا تركنا السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ ، وذهبنا إلى امرأة مؤمنة من الرعيل الأول كانت مولاة ولم تكن سيدة ، فإننا نجد عندها العقل الراجح والرأي الصائب أيضا . إنها المرأة المؤمنة المولاة التي حدثت حمزة رضي الله عنه بما يثير حفيظته ، ويهيج غضبه ، عساه تدركه الحمية على ابن أخيه رسول الله ﷺ الذي آذاه أبو جهل ، فيسلم ويلحق برسول الله ﷺ ، وقد كان .

جاء في « سيرة ابن هشام » : (أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ؛ فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاة لعبد الله ابن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه ، فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه . . . فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفا من أبي الحكم بن هشام ، وجده هاهنا جالساً فآذاه وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ﷺ . فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف

على أحد مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ؛ فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت .)[1]

فإذا ذهبنا إلى الصحابية الجليلة أم سُلَيم ـ رضي الله عنها ـ وجدنا أنفسنا أمام امرأة لا كالنساء ، فهي تمتلك عقلاً يفوق عقول كثير من الرجال ؛ وقد برهنت على ذلك عندما وجدت رغبة أبي طلحة رضي الله عنه في خطبتها وكان على الشرك ، فضحَّت بما يطمع به النساء عادة من المهر ، واكتفت بأن يكون مهرها هو إسلام أبي طلحة رضي الله عنه فقط ، وذلك كله بأسلوب رائع مثير للدهشة والعجب ، ويعبر عن رجحان عقلها وسداد رأيها .

جاء في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » : (عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن أبا طلحة خطب أم سُلَيم يعني قبل أن يسلم ، فقالت : يا أبا طلحة ، ألست تعلم أن إلهك الذي تعبد نبت من الأرض ، قال : بلى ، قالت : أفلا تستحي تعبد شجرة ؟ إن أسلمت فإني لا أريد منك صداقاً غيره ، قال : حتى أنظر في أمري ، فذهب ثم جاء فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالت : يا أنيس زوج أبا طلحة فزوجها .)[2]

ويكون من هذا الزواج المبارك مولود جديد يتعرض لمحنة الموت ، فيظهر عقل الصحابية الجليلة في تلك الساعات الحرجة ، كأحسن ما تكون العقول ، وأبرع ما يكون التصرف الحكيم .

جاء في الصحيحين واللفظ لمسلم : « عن أنس رضي الله عنه قال : مات ابن لأبي

---

(١) سيرة ابن هشام : (ج١ / ٢٦٠)

(٢) ابن حجر : (ج٨ / ٢٤٣)

طلحة من أم سليم ، فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . قال : فجاء فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ، فقال : ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك ، فوقع بها ، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها ، قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت فطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ؛ قالت : فاحتسب ابنك ؛ قال فغضب وقال : تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني ، فانطلق حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : بارك الله لكما في غابر ليلتكما . . . »[1]

وعند البخاري ـ رحمه الله ـ : « فقبض الصبي . فلما رجع أبو طلحة ، قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم : هو أسكن ما كان . »[2]

نعم ، هو أسكن ما كان ، فقد كانت به بعض الحركة ، لكنه الآن ميت لا حراك فيه . إلا أن أبا طلحة رضي الله عنه فهم منها أنه أحسن حالاً من قبل ، رغم أن المتوفى هو ولدها وفلذة كبدها .

فلله در هذه المرأة الفاضلة ! ما أوسع عقلها ، وما أعظم إيمانها !

فإذا ذهبنا إلى امرأة عثمان بن مظعون ـ رضي الله عنها ـ ، وجدنا المرأة المؤمنة التي تهتم بحال رسول الله ﷺ بعد أن فقد زوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ ، فتشير ـ رضي الله عنها ـ على رسول الله ﷺ أن يتزوج ، فيقبل رأيها السديد ويباركه ، دون أن يرده أو يحتقره ، لأنه صدر عن امرأة ، وإنما يحترمه ويقدره ويستجيب له .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٦ ؛ فضائل الصحابة ، ص ١١ ، ١٢ ، رقم ١٠٧) ، وصحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب العقيقة ـ ١ ، رقم ٥٤٧٠)

(٢) المرجع نفسه .

جاء في كتاب « الطبقات الكبرى » : (جاءت خولة بنت حكيم ابن الأوقص السلمية امرأة عثمان بن مظعون ــ رضي الله عنهما ــ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله كأني أراك قد دخلتك خلّة لفقد خديجة . فقال : أجل ، كانت أم العيال وربة البيت . قالت : أفلا أخطب عليك ؟ قال : بلى ، فإنكن معشر النساء أرفق بذلك ، فخطبت عليه سودة بنت زمعة من بني عامر بن لؤي ــ رضي الله عنها ــ ، وخطبت عليه عائشة بنت أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنهما ــ فتزوجهما .)[1]

فإذا جئنا إلى أم الدحداح ــ رضي الله عنها ــ رأينا المرأة المؤمنة العاقلة التي توافق زوجها المؤمن على ما ذهب إليه من بيعه لحديقة لله سبحانه عندما سمع قول الله تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾[2]

فدلت بذلك على رجاحة عقلها وصدق إيمانها .

جاء في تفسير « الجامع لأحكام القرآن » : (قال ــ أي أبو الدحداح ــ : فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله تعالى ، وهو حائط فيه ستمائة نخلة . قال ــ أي رسول الله ﷺ ــ : « إذاً يجزيك الله به الجنة » . فانطلق أبو الدحداح حتى جاء أم الدحداح ، وهي مع صبيانها في الحديقة تدور تحت النخل ، فأنشأ يقول :

بيني من الحائط بالوداد ∴ فقد مضى قرضاً إلى التناد
أقرضته الله على اعتمادي ∴ بالطوع لا من ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف في المعاد ∴ فارتحلي بالنفس والأولاد

قالت أم الدحداح ــ رضي الله عنها ــ : ربح بيعك ، بارك الله لك

---

(١) ابن سعد : (جـ٨ / ٥٧)

(٢) من سورة البقرة : (الآية / ٢٤٥)

فيما اشتريت ، ثم أجابته أم الدحداح وأنشأت تقول :

بشــرك الله بخير وفــــرحْ ∴ مثلك أدى مـا لديه ونصـحْ
قــد متع الله عيالي ومنـــحْ ∴ بالعجوة السوداء والزَّهْو البلحْ
والعبد يسعى وله ما قد كدحْ ∴ طولَ الليالي وعليه مـا اجترحْ

ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم ، وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر ؛ فقال النبي ﷺ : « كم من عِذْق رداح ، ودار فَياح ، لأبي الدَّحداح »[1])[2]

أفلا تدل تلك الإجابة الناضجة على عظيم عقل تلك المرأة المؤمنة ؟ وألا يدل ذلك الموقف النبيل في إخراج الصبية فوراً ، وإلقاء ما في أكمامهم وأفواههم ، على عمق إيمانها وبعد نظرها ؟

فإذا انتقلنا إلى أم المؤمنين أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ ، فإننا سوف نقف أمام عبقرية من عباقرة النساء ، وليس أمام امرأة عاقلة فحسب .

جاء في كتاب « الإصابة في تمييز الصحابة » : (وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع ، والعقل البالغ ، والرأي الصائب ، وإشارتها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم الحديبية تدل على وفور عقلها ، وصواب رأيها .)[3]

وقصة رأيها يوم الحديبية ــ رضي الله عنها ــ وأخذ الرسول ﷺ بهذا الرأي الذي كانت فيه نجاة المسلمين من الهلاك ، لتدل على رجاحة عقلها وصواب رأيها في موقف مهيب نحب أن نقف عنده ، كما جاء في صحيح البخاري : « . . . فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج٧ / كتاب الجنائز ــ ٨٩ ، ص ٣٣)

(٢) القرطبي : (ج٤ / ١٥٥ ، ١٥٦)

(٣) ابن حجر : (ج٨ / ٢٤١)

الله ﷺ لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا . قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بُدْنه ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضهم غماً . »[1]

فأي عقل هذا ؟ وأي رأي هذا ؟ إنه رأي امرأة مؤمنة ، تفجر من عقل مبدع ، ليسجل عبقرية المرأة المؤمنة ، وهي تشير على أفضل خلق الله ﷺ ، ليكون ذلك حجة دامغة تفخر بها المرأة المؤمنة على مر العصور ، فلا يحجر على عقلها ، ولا يهزأ برأيها ، إذ لعلها تكون عبقرية زمانها !

وحسبنا ما ذكرناه من عبقرية المرأة المؤمنة ، ورجحان عقلها ، وسداد رأيها ، بما لا يدع مبرراً لمنتقص لعقل المرأة أن يعمم ذلك على نساء الدنيا ، ولربما يكون في النسوة عبقريات ، يمتلكن عقلاً راجحاً ، ورأياً ثاقباً ، وبخاصة عند من نور الله قلوبهن بنور الإيمان والتقوى .

جاء في كتاب « فتاوى مصطفى الزرقا » عندما سئل ـــ رحمه الله ـــ عن قوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2] هل الحكمة خاصة بالرجال دون النساء ؟ فأجاب : (فضل الحكمة هبة من الله تعالى لمن يختار من عباده لا يختص به الرجل دون المرأة ، فقد يؤتي بعض النساء هذه الحكمة ، ويُحرم منها كثير من الرجال .)[3]

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٥ / كتاب الشروط ـــ ١٥ ، رقم ٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) ، وانظر السيرة الحلبية : (ج٣ ، ٢٢) ، والرحيق المختوم / ٤٥٧ ، ط دار الكتاب والسنة ، ١٤١٧ هـ .

(٢) من سورة البقرة : (الآية / ٢٦٩)

(٣) فتاوى مصطفى الزرقا / ٢٤٣ .

وهذا لا يعني أن تترفع المرأة المؤمنة العاقلة على الرجل ، فتفخر عليه بعقلها وسداد رأيها ، فهذا لا يكون من العاقلة الحصيفة بحال ، وإنما يعني أن ينصف الرجل المرأة المؤمنة المحجبة . . المؤدبة المهذبة . . العاقلة الحكيمة ، لتستفيد الأمة كلها من طاقاتها المكنوزة ، حتى لا يبقى تفكيرها محجوزاً في دائرة المطبخ والمكنسة فقط ، بحجة أنه يحرم عليها أن تفكر فيما سوى ذلك ، لأنها ما خلقت إلا هذا ، وعقلها لا يتسع لأكثر من هذا ، وتفكيرها لا يمتد لأبعد من هذا ، وعبقريتها وهْمٌ وسراب خادع يا هذا .

ألا فلنتق الله في نسائنا ، ولنحسن إلى تلك المرأة المؤمنة المحجبة . . العاقلة المؤدبة ، كما أحسن الله إليها ، ولنكرمها كما أكرمها رسول الله ﷺ ، فأنصف عقلها ، وأطلق عبقريتها ، واحترم رأيها ومشورتها .

هل ضرب المرأة مكرمة؟

قضية ضرب المرأة هي من أخطر القضايا التي يثيرها أعداء الإسلام للطعن فيه ، فهي تجارتهم الرابحة عندما يعلنون الإفلاس ، وبخاصة في هذا العصر الذي تتوجه فيه الأنظمة في العالم إلى الأخذ بآراء التربويين الغربيين ، فتمنع الضرب في المدارس بحجج ومسوغات تعرف في محالها ؛ حتى وجد هنالك من يقول عن الضرب : (أنا لا أتكلم عمن يضرب امرأته ، لأن مثل هذا خير له أن يتزوج حمارة .)

كل هذا في وقت تبيح فيه تلك الأنظمة لنفسها ألواناً من الضرب ، وفنونا من التعذيب والتنكيل ، لكل من يخالفها ويعارضها ، بحجة أنه يهدد أمنها ، واستقرارها ، ومصالحها ؛ ومن ذاق عرف .

فأين هذا كله من صيحاتها ونداءاتها ، والتباكي على ضياع كرامة المرأة وإنسانيتها ؟

نعم ، عندما يكون الضرب غير المبرح ــ ولو بالسواك ــ ، لمن اعوجت في سلوكها ، وانحرفت في تصرفاتها ، لتقويم اعوجاجها ، وترشيد مسيرتها وتصرفاتها ، للحفاظ على البيت الآمن الذي يرعاها ، عندما لا تنفع كل الوسائل الأخرى من الوعظ إلى الهجر إلى غيرها ؛ فعند ذلك تكون الطامة الكبرى ، ويتهم الإسلام بالتخلف ، والرجعية ، وانتهاك حرمة المرأة ، وكرامتها ، و . . . و . . .

والقضية في نظري مبالغ فيها ، وهي بين الإفراط والتفريط ؛ ولا بد معها من وقفة لتوضيحها ، ودفع كل الشبه المتعلقة بها ، لترفع المرأة المؤمنة رأسها ، معتزة بإسلامها ، فخورة بكل ما جاء فيه من القيم والمبادئ ، التي تعتقد أنها ما كانت إلا لإسعادها .

ونحن المؤمنين أبناء هذا العصر نواجه تلك التهم ، وتشاركنا في ذلك

بشكل مباشر تلك المرأة المؤمنة ؛ فبماذا نجيب لندافع عن إسلامنا ، ونفخر بمبادئنا ، ونعلن بكل ثقة ويقين أن إسلامنا صالح لكل زمان ومكان لنا ، ولكل أمم الأرض من حولنا ؟

وقبل الإجابة عن هذا ، نحب أن نقول : إن كل الأنظمة في الدنيا ، إنما تُفهم في ضوء ثوابتها التي لا تقبل التبديل ولا التغيير .

ومن هنا كان لزاماً علينا ، ونحن نسمع بقضية الضرب للمرأة في القرآن الكريم ، أن نفهمها في ظل الثوابت التي جاء بها هذا الدين الحنيف ، فهو ضرب له شروطه وضوابطه ، ومقدماته وأغراضه ؛ ومعلوم ومحفوظ لدى الخاصة والعامة ذلك المبدأ الثابت وهو : أن الإسلام جاء بالرحمة والإحسان ، فهو يتحرك بين هذين الخطين المتوازيين ، حتى عندما يتعامل مع أعدائه ، فإنه يرحم غير المقاتلين ، كالشيخ الفاني ، والمرأة والطفل . فكيف يتصور منه احتقار المرأة وإهانتها ؟ بل كيف يأمر بالإحسان إلى كل شيء ، حتى إلى الحيوان ، ثم هو يرفض الإحسان إلى المرأة ، ويأمر بظلمها وقهرها ؟

فما الضرب الذي جاء في آية من القرآن الكريم ، إلا ضرب الحبيب للتأديب ، في ظل البيت الذي لا يقوم إلا على الرحمة والوداد ، وليس على الظلم والقهر والاستعباد .

وإن وجود بعض الصور المهينة للضرب في البيوت من قبل بعض المنتسبين للإسلام ، ممن لم يفقهوا أهدافه ، لا يعني أن ذلك هو الإسلام ، وإنما هو الفهم الخاطئ برواسبه الجاهلية العفنة ، التي تسيطر على المرء أحياناً في ساعات غضبه ، فلا يعرف للمرأة حقها ، ولا يرحم ضعفها وأنوثتها .

قـال الله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1]

وقال ﷺ : « إن الله كتـب الإحسـان على كـل شـيء ، فـإذا قتلتـم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسـنوا الذبـح ، وليحـد أحدكـم شـفرته ، فليرح ذبيحته . »[2]

في هذه الظلال الحبيبة من الرحمة والإحسـان يجـب أن تفـهم قضيـة الضرب للمرأة ، ويجب أن يفهم أن هذا الضرب غـير المبرح بالسـواك أو نحوه ليس للمؤمنة المؤدبة شريكة الحيـاة ، وإنمـا هـو للناشـزة المتغطرسـة ؛ وبخاصة في هذا العصر الذي أصبحت فيه المرأة المؤمنة بحمـد الله مثقفـة واعيـة ، ولربما كانت داعية .

فالضرب للتأديب الذي لا يكون إلا في حالة النشوز ، على ما سنبينه إن شـاء الله ، فـهو وسيلة تربويـة لهـا مقدماتـها وشـروطها وضوابطـها وأهدافـها ؛ وهـذه الوسيلة هـي للمؤمنـين أصحـاب الأخـلاق العاليـة والصفات الحميدة ، وليسـت لكـل أحـد لا يحسـن استخدامها ، بحيـث يعبث بها على هواه كيفما اتفق ، دونما وازع من خلـق أو ضمـير ؛ فـهي بذلك كالسكين التي صنعت لتقضي مصالح الناس ، لا لتسفك دمـاءهم ، وتأخذ أرواحهم . ولذا فإنها يجب أن تبقى في أيد أمينـة ، ولا تمتـد إليـها أية يد شريرة . لكن إذا وجد من يسـيء إليـها ، ويسـتخدمها في غـير مـا صنعت له ، فهذا لا يعني أن صنعها ابتداء كان خطأ ، وأن علينا أن نمحـو أثرهـا من الوجود . وكذا فإنه إذا وجد من يسيء إلى هذا الضرب ، فلا يحسـن استخدامـه ، ولا يعـرف أهدافه ؛ فـإن هـذا لا يعـني أن نمحـو أساسـاً حكم الضرب من الوجود ، لترضى عنا ناشزة متكبرة متطلعة لغير زوجها .

---

(١) من سورة آل عمران : (الآية / ١٥٩)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٣ / كتاب الصيد والذبائح ـ ٥٧ ، ص ١٠٦)

والعجب كل العجب أن نسمع كثيراً عن قضية غلاء المهور ، بحيث لا تكاد تسمع أحداً يتكلم عن هذه القضية إلا وهو يقول : لو كان مكرُمة لفعله رسول الله ﷺ ، ولكانت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أولى به ، وما ذلك إلا لتسهيل عملية الزواج على الشباب في هذا العصر لإنشاء البيت المسلم ، وللقضاء على أسباب الرذيلة والفاحشة ، وهذا شيء طيب ؛ لكن الأهم من إنشاء البيت ابتداءً المحافظةُ على البيت بعد أن يتم الزواج ، إذ المحافظة على النصر كما يقولون أهم من تحقيق النصر نفسه .

فلماذا لا يتحدث المتحدثون عن قضية ضرب المرأة من قِبَل هؤلاء الشباب باللغة نفسها التي يتحدثون فيها عن غلاء المهور ؟ ما دامت قضية الضرب أصبحت تهدد كثيراً من البيوتات ، حتى صارت حوادث الطلاق ، أو الخلع ، أو الهجر والقطيعة تفوق حالات الزواج ، إذ ما فائدة الزواج إذا كان سينتهي عاجلاً أو آجلاً نهاية سوداء ؟ نعم لماذا لا يتحدثون عن ضرب المرأة فيقولون : لو كان الضرب للمرأة مكرُمة لسبقكم إليها رسول الله ﷺ ، ولكانت أمهات المؤمنين أولى به .

ولعل قائلاً يقول : لماذا يضرب رسول الله ﷺ ، ولم يحدث أي شيء بينه وبين أي من زوجاته ؟ ومن قال ذلك فقد أخطأ ، فرسول الله ﷺ قد هجر زوجاته للخلاف الذي وقع بينه وبينهنَّ شهراً كاملاً ، حتى نزل عليه تخييرهن بين اختيار الدنيا أو اختيار الله ورسوله ؛ فاخترن الله ورسوله .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]

وجاء في صحيح البخاري : (حدثنا ابن عباس رضي الله عنهما قال

(١) سورة الأحزاب : (الآية / ٢٧ ، ٢٨)

أصبحنا يوماً ونساء النبي ﷺ يبكين ، عند كل امرأة منهن أهلها ، فجاء عمر بن الخطاب . . . فدخل على النبي ﷺ فقال : أطلقت نساءك ؟ فقال : لا ولكن آليت منهن شهراً .)[١]

ثم إنه ﷺ كان يعلم من عائشة رضي الله عنها وهي أحب نسائه إليه ، حين تكون راضية عنه ، وحين تكون غضبى . « عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ إني لأعلم إذا كنت عني راضية ، وإذا كنت عليَّ غضبى ، قالت فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال : أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين : لا وربِّ محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ، قالت : قلت : أجل ، والله يا رسول اللهِ ، ما أهجر إلا اسمكَ . »[٢]

فإذا كان هذا شأن الحياة الزوجية مع أفضل خلق الله ﷺ ، وهذا حال نسائه رضي الله عنهن ؛ فهل لنا أن نتساءل كم مرة ضرب رسول الله ﷺ نساءه ؟ وأي النساء تلك التي ضربها رسول الله ﷺ ؟

جاء في صحيح مسلم : « عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ، ولا امرأة ، ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما نِيل منه شيء قط ، فينتقم من صاحبه ، إلا أن يُنتهك شيء من محارم الله ، فينتقم لله عز وجل . »[٣]

فإلى كل من يضرب زوجه المؤمنة المؤدبة المهذبة ، نقول : لا تفعل ؛ لأنها لو كانت مكرمة لسبقك إليها رسول الله ﷺ ، وإذا كنت تظن أنك

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح ــ ٩٢ ، رقم الحديث ٥٢٠٣)
(٢) المرجع نفسه : (ج٩ / نكاح ــ ١٠٨ ، رقم ٥٢٢٨ وَ ج١٠ / أدب ــ ٦٣ ، رقم ٦٠٧٨)
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٥ / كتاب الفضائل ، ص ٨٤ ، رقم ٧٩)

تضربها امتثالاً لأمر ربك ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ ؟ على أن هـذا الأمـر في نظـرك هو للوجوب ، فلا يجوز لك تركه ، ولا التهاون فيه ، لذا فأنت تتعبد الله سبحانه بهذا الضرب ، كلما وجدت في نفسك نشاطاً لتلـك العبـادة . ! فإنك بذلك واهم آثم ، وإذا كانت زوجك ممن يكفرن العشير كمـا جـاء في صحيح البخاري قوله ﷺ : « . . . ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط ، ورأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : بكفرهـن . قيـل : يكفـرن بـالله ؟ قـال : يكفـرن العشير ، ويكفـرن الإحسـان ، لـو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قـالت : مـا رأيـت منـك خيراً قط . »(١)

فإنـه خـير لـك أن تقتـدي برسـول الله ﷺ الـذي لم يكـن ليضـرب زوجاته داخل بيته ، وإنما كان ضربه لأعداء الله في ساحة القتـال ، وكـان غضبه لله عندما تنتهك محارم الله ؛ فإذا كنت ممن عجز عن هذا اللون مـن الجهاد ، فلا تظنن أن ضربـك لزوجـك داخـل بيتـك يصـح بديـلاً عنـه ، فيعفيك من المسؤولية ، ويرفع عنك الإثـم ، لأنـه لا تـزر وازرة وزر أخـرى . ولكن إذا كنت تعلم علم اليقين أنه لا يُصلـح زوجـك الناشـزة إلا الضـرب ، كما هي حال بعض النسـوة ، وكنـت أهـلاً لهـذا التقويم ، فـآخر الـدواء الكي ، وصاحب الدار أدرى بما فيها . لكن مع هذا لا بد لك من معرفة دقيقة للناشزة ، لتعلم من هي التي تضرب ؟ ومتى يكون هذا الضرب ؟

قـال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾(٢)

فالضرب هنا للناشزة ، ومن هي الناشزة ؟

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح ـ ٨٨ ، رقم ٥١٩٧)

(٢) من سورة النساء : (الآية ٣٤)

جاء في « مفردات الراغب » : (ونشوز المرأة : بغضها لزوجها ، ورفع نفسها عن طاعته ، وعينها عنه إلى غيره .)[1]

وجاء في تفسير « المحرر الوجيز » : (والنشوز : أن تتعرج المرأة وترتفع في خلقها ، وتستعلي على زوجها .)[2]

فإذا بلغت إساءة المرأة بزوجها هذا الحد ، بحيث صارت تكرهه لا لسبب موجب ، وتترفع عليه لا لمبرر مقبول ، وتمتد عينها إلى غيره دونما حياء ، بما يثير الشبه والظنون ، ويهدد البيت بالخراب والدمار .

فهل مع هذا ينفع السكوت تكريماً للمرأة ، وحفاظاً على حريتها ومشاعرها ؟ أم أنه لا بد مع هذا النشوز للمرأة من اتخاذ موقف ، ليقف الاعتداء على البيت المسلم الذي أراد له صاحبه أن يأخذ طريقه في بناء المجتمع على أسس قويمة ، وأركان ثابتة ؛ فإذا به تعمل معاول تلك المرأة الناشزة ، لتهدمه فوق رؤوس أصحابه ، فتسيء لنفسها قبل أن تسيء لبيتها وأمتها .

نعم ، لا بد من تقويم هذا الاعوجاج ، ومن إصلاح هذا النشوز بطريقة مناسبة ، ويكون ذلك على حسب الحال ، فالضرب للناشزة المستعلية المترفعة المتطلعة لغير زوجها ، أمَّا المؤمنة الشريفة المؤدبة فأُسلوبها يختلف عندما تصدر منها هفوة ، لأن الضرب لا يكون إلا للمرأة الناشزة ، وليس لكل امرأة مهما كان أدبها رفيعاً وخلقها قويماً .

جاء في « تفسير القرطبي » : (ويختلف الحال في أدب الرفيعة والدنيئة ؛ فأدب الرفيعة العذل ، وأدب الدنيئة السوط . . . وقال ابن دريد :

واللوم للحر مقيمٌ رادعٌ ∴ والعبد لا يردعُه إلا العصا)[3]

---

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ، ٨٠٦ ، طبعة دار القلم ، ١٤١٢ هـ .

(٢) المحرر الوجيز لابن عطية : (ج٢ / ٤٨)

(٣) تفسير القرطبي : (ج٥ / ١١٤)

فالضرب ليس للمؤمنة المؤدبة المهذبة ، التي نتحدث عنها ، وندافع عن ظلمها وقهرها ؛ فالشريفة الرفيعة ، المؤدبة المهذبة ، إذا ما حدث منها شيء ، فإن النظرة تكفيها ، والحر تكفيه الإشارة .

مع أن هذا الضرب لا يكون إلا بعد خطوات لا يجوز تخطي واحدة منها إلى غيرها قبل وفائها حقها ، فالموعظة الحسنة أولاً بالقول السديد والتوجيه الرشيد ، فإذا لم تنفع تلك الموعظة جاء دور الهجر ، وهو إشارة أبلغ من سابقتها ، حتى إذا لم ينفع هذا ولا ذاك ، كان التهديد بالضرب ، ثم الضرب .

جاء في تفسير القرطبي : (﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ أمر الله أن يبدأ النساءَ بالموعظة أولاً ، ثم بالهجران ، فإن لم ينجعا فالضرب .)(1) نعم إنه الضرب ، لكنه ضرب الحبيب للتأديب ، لتلك الناشزة المعتدية المتطلعة إلى الآخرين كما سبق بيانه ، لأنها هي التي جنت على نفسها ، وأساءت إلى كرامتها ، حين أخطأت فلم تتراجع عن ذنبها ، ولم تستجب لنصحها وموعظتها ، ولم تأبه لهجرها وقطيعتها .

ومع هذا كله فما حكم هذا الضرب ؟ ما ضوابطه ؟ ما آلته ؟

عرفنا أن الضرب لا يكون إلا بعد الموعظة والهجران ، وأنه إنما جاء في حق الناشزة المترفعة المتطلعة ، فإذا لم تكن المرأة كذلك ، وإنما كانت مؤمنة مؤدبة مهذبة ، فأي معنى للضرب عندئذ ؟

جاء في كتاب « الفقه الإسلامي وأدلته » : (إن أصرت على النشوز ضربها عندئذ ضرباً غير مبرِّح ـ أي غير شديد ـ ولا شائن . . . ويكون الضرب أيضاً بيد أو بعصاً خفيفة إن رأى الزوج هذا . والأولى الاكتفاء

---

(1) المرجع نفسه : (جـ ٥ / ١١٣)

بالتهديد وعدم الضرب .)[1]

وجاء في فتح الباري على صحيح البخاري : (« قوله : باب ما يكره من ضرب النساء » فيه إشارة إلى أن ضربهن لا يباح مطلقاً ، بل فيه ما يكره كراهة تنزيه أو تحريم ، . . . وقد جاء النهي عن ضرب النساء مطلقاً ، فعند أحمد وأبي داود والنسائي وصححه ابن حبان والحاكم « لا تضربوا إماء الله » فجاء عمر رضي الله عنه فقال : قد ذَئِرَ النساء على أزواجهن ، فأذن لهم فضربوهن ، فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساء كثير ، فقال : « لقد أطاف بآل رسول الله ﷺ سبعون امرأة كلهن يشكين أزواجهن ، ولا تجدون أولئك خياركم »[2] ، وله شاهد من حديث ابن عباس في صحيح ابن حبان . وقوله ذَئِرَ أي : نشز .)[3]

فعلى هذا إذا وقع الضرب لمبرر من المبررات ، فلن يكون صاحبه هو الأفضل ، ولن يكون من خيار الناس ، إذ خيار الناس لا يَضربون ، بل لعلهم يلوِّحون .

جاء في « طبقات ابن سعد » : (أن رسول الله ﷺ ، نهى عن ضرب النساء ، فقيل : يا رسول الله إنَّهن قد فسدنَ ، قال : « اضربوهن ، ولا يضرب إلا شراركم . »)[4]

وجاء في كتاب « الأم » للشافعي ــ رحمه الله ــ : (وقوله ﷺ : « لن يَضرب خيارُكم » يشبه أن يكون ﷺ نهى عنه على اختيار النهي ، وأذن

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي : (ج٧ / ٣٣٩ ، ٣٤٠)

(٢) فتح الباري على صحيح البخاري : (ج٩ / ٣٠٢ ، ٣٠٣)

(٣) والحديث في عون المعبود شرح سنن أبي داود : (ج٦ / ١٨٤ ، رقم ٢١٣٢)

(٤) طبقات ابن سعد : (ج٨ / ٢٠٤)

فيه بأن يكون مباحاً لهم الضرب في الحق ، واختار لهم أن لا يضربوا .)[1]

وقال ـ رحمه الله ـ في موضع آخر : (ولو ترك الضرب كان أحب إلي ، لقول النبي ﷺ : « لن يضرب خياركم . »)[2]

فضرب المرأة من قبل الرجل بحيث لا يعرف وسيلة للتأديب غيرها ، ليس خلقاً كريماً يفخر به الرجل ، وإنما هو خلق ذميم ، لا يفعله خيار الناس .

جاء في « تفسير القرطبي » : (﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ . . . والضرب في هذه الآية هو ضرب الأدب غير المبرح . . . قال عطاء : قلت لابن عباس : ما الضرب غير المبرح ؟ قال : بالسواك ونحوه .)[3]

لكن ختم آية الضرب بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[4] ، مناسب تماما لموضوع الضرب حيث يذكر من يرى الضرب أن عليه أن يتذكر قدرة الله عليه ، لأنه سبحانه أقدر عليه من قدرته على زوجه .

جاء في « تفسير أبي السعود » : (﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ فاحذروه ، فإنه تعالى أقدر عليكم منكم على من تحت أيديكم ، أو أنه تعالى على علو شأنه يتجاوز عن سيئاتكم ويتوب عليكم عند توبتكم ، فأنتم أحق بالعفو عن أزواجكم عند إطاعتهن لكم .)[5]

وجاء في صحيح البخاري : « لا يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ، ثم يجامعها في آخر اليوم . »[6]

أجل ! إنه الضرب غير المبرح ، وهو الضرب بالسواك أو نحوه .

---

(١) كتاب الأم للشافعي ـ القسم الثاني : (ج٥ / ١٩٤) ، والحديث أيضا في مصنف ابن أبي شيبة : (ج٥ / ٢٢٣)

(٢) المرجع السابق : (ج٦ / ١٤٥)

(٣) تفسير القرطبي : (ج٥ / ١١٣)

(٤) من سورة النساء : (الآية / ٣٤)

(٥) تفسير أبي السعود : (ج٢ / ١٧٤)

(٦) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح ـ ٩٣ ، رقم ٥٢٠٤)

عن أم سلمة ــ رضي الله عنها ــ زوج النبي ﷺ قالت : « كان النبي ﷺ في بيتي ، وكان بيده سواك ، فدعا وصيفة له ــ أو لها ــ حتى استبان الغضب في وجهه ، فخرجت أم سلمة إلى الحجرات ، فوجدت الوصيفة وهي تلعب ببهمة ، فقالت : ألا أراك تلعبين بهذه البهمة ، ورسول الله ﷺ يدعوك ؟ فقالت : لا والذي بعثك بالحق ما سمعتك ؛ فقال رسول الله ﷺ : لولا خشية القود لأوجعتك بهذا السواك ، وفي رواية : لولا القصاص لضربتك بهذا السواك ، وفي رواية : لولا مخافة القصاص لأوجعتك بهذا السوط . »[1] ، وإسناده جيد عند أبي يعلى والطبراني .

فإذا عرفنا ذلك كله وهو أن الضرب لا يفعله خيار الناس ، وإذا كان ، فإنما هو للناشزة المترفعة المتطلعة ، وهو ضرب غير مبرح ، وآلته عندئذ هي السواك أو نحوه ، وذلك كله بهدف التأديب لتلك الناشزة بعد أن لم تنفع معها الموعظة الحسنة ، ولا الهجر . فأي عيب على الإسلام في هذا الحكم ، إذا أخذ في ظل ضوابطه وأهدافه ؟ ألا فلتزدادي تمسكاً بإسلامك أيتها المؤمنة المحجبة المؤدبة ، لأن الإسلام ما كان في قوانينه التي تخصك إلا حريصاً على إسعادك ، وإسعاد بيتك وأمتك .

(١) مجمع الزوائد : (ج١٠ / ٣٥٦)

هل تطلق المرأة مواهبها وتظهر مفاتنها ؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن نسأل المرأة لمن تريدين أن تطلقي مواهبك ؟ وعلى من تريدين أن تظهري مفاتنك ؟ لأنه ليس للمرأة أن تطلق مواهبها بلا حدود ، ولا أن تظهر مفاتنها بلا قيود .

المرأة عالم مستقل لها أنوثتها في طباعها وعاداتها ، وفي لباسها وتفكيرها وتطلعاتها ؛ ولا يمكن لها أن تتخلى عن تلك الأنوثة بحال ، ولو استجمعت كل مواهبها فأطلقتها ، واستحضرت كل مفاتنها فألهبتها . ولن تكون في النهاية امرأة صالحة على أية حال ، ولن تصير رجلاً يحسب حسابه بين الرجال ، فهي لذلك حائرة ضائعة خاسرة ، لأن المتشبهة من النساء بالرجال ملعونة ، ظالمة لنفسها ، معتدية على حقوق غيرها .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال . »[1]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، قال : « لعن النبي ﷺ المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء ، وقال : أخرجوهم من بيوتكم . قال : فأخرج النبي ﷺ فلاناً ، وأخرج عمر فلانة . »[2]

فالمرأة صائرة إلى أنوثتها وطبيعتها ، وإن تزيت بزي الرجال فترة من عمرها ، أو تقمصت لحين من الدهر شخصية غيرها .

قال الشاعر ذو الإصبع العدواني :

كل امرئ صائر يوماً لشيمته ∴ وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

فلماذا هذا التلبيس والتدليس ؟ والأمر واضح لا لبس فيه ؛ ولماذا

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١٠ / كتاب اللباس – ٦١ ، رقم ٥٨٨٥)

(٢) المرجع نفسه : (ج١٠ / كتاب اللباس – ٦٢ ، رقم ٥٨٨٦)

تعتدي المرأة على الجنس الآخر طامعة في حقوقه ومزاياه ، والمرأة إنما تطلب لأنوثتها المتميزة ، فإذا فقدت هذه الأنوثة أو اهتزت أركانها فيها زهد فيها الرجل ، وراح يبحث عن أنثاه التي تسكن إليها رجولته ، كما تبحث ذرة الصوديوم ذات الشحنة الموجبة عن ذرة الكلور ذات الشحنة السالبة ، ليتكون منهما كلور الصوديوم المتعادل المستقر .

أجل ، إن المرأة تطلب لأنوثتها ، وهي فتنة الرجال على مر الزمان بتلك الأنوثة ، ولا ينكر هذا عاقل ؛ وانجذاب الإلف إلى إلفه سنة الله في خلقه ، مع الإنسان والحيوان والنبات ، بل ومع المادة التي رأينا مثالها فيما سبق .

قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1]

جاء في « فتح الباري » : (﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ فجعلهن من حب الشهوات ، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك .)[2]

فالمرأة مزينة للرجل ، ومحببة إليه ، ولا يهمنا من الذي زينها له ، بقدر ما يهمنا أنها كذلك ، والرجل منجذب إليها لا محالة ، كيف لا وهي سكنه الذي يسكن إليه ؟

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]

---

(١) من سورة آل عمران : (الآية / ١٤)

(٢) فتح الباري : (ج٩ / ١٣٨)

(٣) من سورة الروم : (الآية / ٢١)

جاء في كتاب « في ظلال القرآن » : (ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات ، وهو جزء من تكوينه الأصيل ، لا حاجة إلى إنكاره ، ولا إلى استنكاره في ذاته ، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد .)[1]

ومع هذا الانجذاب الفطري بين الجنسين تبقى المرأة فتنة الرجل ، وتبقى شغله الشاغل .

جاء في صحيح البخاري قوله ﷺ : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء . »[2]

وجاء في صحيح مسلم قوله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء . »[3]

فالمرأة فتنة الرجل في هذه الحياة ، وهي أخطر بلاء يتعرض له ، إذ ليس أضر على الرجل من المرأة ، إن أتيح لها أن تطلق مواهبها بين يديه ، أو تظهر مفاتنها أمام عينيه .

ولما كان الأمر كذلك ، فقد تنبه المفسدون في الأرض إلى الخطر البالغ الذي يمكن أن تحدثه المرأة في المجتمعات ، فصبوا عنايتهم على مواهبها فألهبوها ، وعلى مفاتنها فأبرزوها ، بالصوت العذب ، والصورة الفاتنة ، واللفتة البارعة ، والمشية المائلة ، والحركة الرشيقة ، واللباس الضيق والشفاف ، والزي المثير حتى للصغير ، فبهروا بذلك العقول ، وأخذوا بالأبصار ، ثم تحدوا شباب أمة الإسلام أن يصمد أحدهم ، فلا يحار ولا يضطرب ، ولا يفتن ولا يغلب ، ولا يضل ولا

---

(١) في ظلال القرآن : (ج١ / ٣٧٢)

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح ـ ١٧ ، رقم ٥٠٩٦)

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٧ / كتاب الذكر ـ ٩٩ ، ص ٥٥)

يسقط ، بعد أن تواطؤوا على إيمانه فأضعفوه وأتلفوه ، وتطاولوا على خُلقه فأنهكوه وحرَّفوه .

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ∴ إيّاك إيّاك أن تبتل بالماء

ولعلي لا أنسى ذلك الموقف الذي عشت تجربته بنفسي منذ حوالي أربعين سنة عندما كنت طالباً وأحببت أن أشترك في إحدى المجلات العلمية ، لكن الذي كان يمنعني هو وجود صور النساء الفاتنة على غلاف هذه المجلة من وجهيها ، وبدافع النصح والغيرة كتبت إلى صاحب المجلة أن يستبدل هذه الصور بغيرها ليصار إلى مشاركة عدد أكبر من المشتركين ، فوافقني على أن أمده بالصور المناسبة للغلاف ففعلت وفعل ، وما هي إلا فترة وجيزة حتى عاد سيرته الأولى كما كان ؛ فلما راجعته قال : إنني خسرت ما كنت أجنيه بسبب تلك الصور الفاتنة ، فهل تستطيع أن تعوضني عن تلك الخسارة ؟ فلما سمعت هذا الرد عرفت أن القضية أكبر من حجمنا ، وأن هناك أيادياً خفية تدعم هذا الفساد ، فحوقلت واسترجعت ، كما نفعل دائماً عندما نتعرض لما لا قبل لنا به .

جاء في كتاب « حصوننا مهددة من داخلها » : (كثر كلام الناس في هذه الأيام في الصحف وفي دور العلم ، وأقسام الفلسفة ومعاهد تخريج المدرسين والأخصائيين ـ الاجتماعيين منها خاصة ـ ، عن الكبت الجنسي ومضاره . وشاع بين كثير ممن ينتحلون الدراسات النفسية ـ والفرويدية منها خاصة ـ أن السبيل إلى تلافي الأضرار المتولدة عن هذا الكبت هي اختلاط الذكور بالإناث ، وتخفف النساء من الحجاب ومن الثياب .)[1]

وجاء في الكتاب نفسه : (كان الناس يناقشون الاختلاط هل هو جائز أو غير جائز ، وهل هو مفيد أو ضار ، . . . فإذا هذا الاختلاط

---

(١) الدكتور محمد محمد حسين / ٦١ .

يصبح حقيقة واقعة بطريق ملتو خفي لم يكد يتنبه إليه أحد ، بعد أن طالت المرحلة الابتدائية إلى ست سنوات يتجاور فيها الذكور والإناث . . . بل لقد أصبحنا أمام بعض المدارس المختلطة في مرحلة التعليم الإعدادي ، بعد أن تكشفت تجربة الاختلاط في الجامعة عن مآس لا يستطيع تجاهلها إلا مكابر أو مدلس .)[1]

مما يؤكد أن الدعوة إلى الإفساد عن طريق المرأة لا يتم هكذا عبثاً ، وإنما يجري وفق خطة مبرمجة ومدروسة من قبل مؤسسات متخصصة وممولة تسللت والناس نيام .

كما أذكر أنني كنت مدرساً منذ حوالي ثلاثين سنة في بلد مسلم ، وفي مدينة محافظة فيه ، وما راعني إلا أن أفاجأ بأن إدارة التعليم سوف تقيم مهرجاناً على مستوى المدارس الابتدائية ذكوراً وإناثاً يتم استعراضه في شوارع المدينة المحافظة ، ويخرج الناس جميعاً للمشاركة في هذا الحفل الذي سوف يتزين فيه الطلاب والطالبات بأبهى زينة ، وفي سيارات مزينة بأجمل الزينات ، ثم ينفض المهرجان لتحدث الفوضى ويكون الاختلاط الماجن الذي لا تعرفه تلك المدينة من قبل ، لكسر حاجز الجمود كما يسمونه ، وقد كان ما توقعناه من الشر والفساد ، وتبين في حينها أن وراء العملية موجه مادة التربية الرياضية ، الذي كان يحمل أفكاراً إباحية ، استطاع أن يسربها بمكر ودهاء ؛ لكن هذا المهرجان بحمد الله لم يتكرر حسب علمي .

المهم أن هذا كله قد حدث ، وغيره كثير لا يزال يحدث ، والمسلمون غافلون ، وفي نومهم غارقون .

الإسلام كما سبق بيانه لم يحرم المرأة حقاً من حقوقها ، بل صانها وكرمها . لكن هذا لا يعني أن يتركها وشأنها ، لتفسد من حولها ، وتعتدي بأنوثتها وفتنتها على أبناء أمتها . إذ للمرأة إشارات حمراء لا

---

(١) المرجع نفسه ١٦٣ .

يجوز لها تخطيها ، وذلك للمحافظة عليها ، وعلى كرامتها وأنوثتها ، سواء أكان ذلك في صوتها ولباسها ، أم في اختلاطها وزينتها ، أم في ذهابها وإيابها ، وفي كل شأن من شؤونها .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾(٢)

فهل بعد هذه النصوص الصحيحة الصريحة يخطر ببال امرأة عاقلة مؤمنة مؤدبة أن تُظهر شيئاً من مفاتنها ، أو تعرض بعضاً من عطورها وزينتها ، أو تتكسَّر في مشيتها ، أو تتفنَّن في تصفيف شعرها وترقيق ألبستها ، ثم تتعرض للرجال في أنديتهم ، وتزحمهم في أسواقهم بمناكبهم ؟

كلا وألف كلا . لأنها إن فعلت ، فلن تكون المؤمنة المؤدبة المهذبة ، التي نتحدث عنها ، وندافع عن ظلمها وقهرها ، وإنما ستكون الباغية المعتدية ، الظالمة لنفسها وأمتها ، ولسوف تلقى في الدنيا خِزيها ، وتنال

---

(١) من سورة الأحزاب : (الآية / ٥٩)

(٢) من سورة النور : (الآيتان / ٣٠ ـ ٣١)

في الآخرة جزاءها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات ، مميلات ، مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا . »(١)

[الأسنمة : جمع سنام ، والبخت : الإبل العجمية ذات السنامين]

إن المرأة المؤمنة المؤدبة تخفي مفاتنها عن غير محارمها ، فالجلباب عندها للستر والحجاب ، فهو يستر كل مفاتن المرأة ، حتى لا يبدي منها شيئاً يمكن أن يثير الرجل ، فيشغل عقله ، أو يلهب فكره ، أو يؤجج عواطفه ؛ كما لا يحمل في طياته لوناً من ألوان الزخرفة أو الزركشة التي تجعله بحد ذاته جميلاً وجذاباً ، بحيث يستهوي القلوب ويشد الأبصار .

أجل ! إنها تخفي مفاتنها عن غير محارمها ، ولو كانت تؤدي عبادتها ، فهي خلف المصلين في صلاتها ، حتى لا تشغلهم بحركتها .

عن أنس رضي الله عنه قال : « صلى النبي ﷺ في بيت أم سليم ، فقمت ويتيم خلفه ، وأم سليم خلفنا . »(٢)

ثم هي تنصرف قبل قيام الرجال وقت العتمة حتى لا تراهم ولا يروها .

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : « إن كان رسول الله ﷺ ليصلي الصبح ، فينصرف النساء متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس . »(٣)

الأصل في المرأة المؤمنة المؤدبة خباؤها وحياؤها ، وعليها أن تحافظ على هذا الخباء والحياء عندما تؤدي واجبها ، وتتحمل مسؤوليتها ، ولو كان ذلك في صلاة تؤديها لربها .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٧ / كتاب الجنة ــ رقم ٥٣ ، ص ١٦٠)

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٢ / كتاب الأذان ــ ١٦٤ ، رقم ٨٧١)

(٣) المرجع السابق : (ج٢ / كتاب الآذان ــ ١٦٣ ، رقم ٨٦٧)

جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها . »(١)

وقال رسول الله ﷺ : « إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي كذا وكذا . قال قولاً شديداً . »(٢)

قال الشارح : (كذا وكذا : كناية عن كونها زانية .)(٣)

فإذا خالفت المرأة بعض هذه الضوابط في خروجها ، وصارت فتنة للرجال من حولها ، وأداة للإفساد في مجتمعها ، فخيرٌ لها ألف مرة أن تلزم بيتها ، ولو كان خروجُها إلى مسجد نبيها ، لأنها لن تكون بذلك ظالمة لنفسها وأنوثتها فحسب ، وإنما ستكون الظالمة لأهلها وأبناء أمتها .

عن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : « لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهنّ كما مُنعت نساء بني إسرائيل . »(٤)

وكذا حالها في سفرها لحجها وطوافها .

جاء في صحيح البخاري : « قال ابن جريج أخبرني عطاء ــ إذ مَنَع ابنُ هشام النساءَ الطوافَ مع الرجال ــ قال : كيف يَمنعهنّ وقد طاف نساء النبي ﷺ مع الرجال ؟ قلت : أَبَعْدَ الحجاب أو قبل ؟ قال : إيْ لعمري لقد أدركته بعد الحجاب . قلت : كيف يخالطنَ الرجال ؟ قال : لم يكنَّ يخالطنَ ، كانت عائشة ــ رضي الله عنها ــ تطوف حَجْرةً ــ أي ناحية ــ من الرجال لا تخالطهم ، فقالت امرأة : انطلقي نستلم يا أم المؤمنين ، قالت : انطلقي عنك ، وأَبَتْ . يخرجنَ متنكّرات بالليل ، فيطفن مع الرجال ، ولكنّهنَّ كنَّ إذا دخلنَ البيت قمنَ حتى يدخلنَ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج٤ / كتاب الصلاة ــ ١٣٢ ، ص ١٥٩)

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود : (ج١١ / كتاب اللباس ــ ٦ ، رقم ٤١٥٥)

(٣) المرجع نفسه .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٢ / كتاب الأذان ــ ١٦٣ ، رقم ٨٦٩)

وأخرج الرجال .)[1]

نعم ، المرأة محجوبة عن الرجال في صلاتها ، وبعيدة عن الرجال حتى في حجها وطوافها ، لأنها فتنة الرجل على مر الزمان .

فتنة في حديثها ، فتنة في مصافحتها ، فتنة في النظر إليها ، فتنة في رقتها ودلالها .

فلا بد والحالة هذه أن تجد طريقها مع بنات جنسها إلى كل ما تؤمله من كرامتها ، وتسعى إليه من رفعة أمتها ، فهي لا تتحدث بحضرة الرجال في صلاتها ، كما يتحدث الرجال إذا سها الإمام ، وإنما تصفق فقط .

قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ، مالكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق ؟ إنما التصفيق للنساء . »[2]

وجاء في « طبقات ابن سعد » : (عن عطاء الخراساني أن رسول الله ﷺ أخذ على النساء فيما أخذ أن لا ينحن ولا يقعدن مع الرجال في خلاء . . .

وعن الحسن أن النبي ﷺ ، لما بايع النساء أخذ عليهن أن لا يحدثن من الرجال إلا محرماً . . .

حدثنا ضابئ بن عمرو قال : دخلنا على الحسن نعوده في وجع فقال : إن رسول الله ﷺ لما نزلت بيعة النساء بايعهن واشترط عليهن أن لا يتحدثن مع الرجال ، وهو الذي في كتاب الله . . .

قالت أم عمارة : كانت الرجال تصفق على يد رسول الله ﷺ ليلة بيعة العقبة ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله ﷺ ، فلما

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٣ / كتاب الحج ـ ٦٤ ، رقم ١٦١٨)

(٢) المرجع السابق : (ج٣ / كتاب السهو ـ ٩ ، رقم ١٢٣٤)

بقيت أنا وأم منيع ، نادى زوجي عرفة بن عمرو : يا رسول الله هاتان امرأتان حضرتا معنا تبايعنك . فقال رسول الله ﷺ : قد بايعتهما على ما بايعتكم عليه ، إني لا أصافح النساء . . .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة للهجرة كان نساء قد أسلمن فدخلن عليه فقلن : يا رسول الله ، إن رجالنا قد بايعوك ، وإنا نحب أن نبايعك .

قال : فدعا رسول الله ﷺ بقدح من ماء فأدخل يده فيه ، ثم أعطاهن امرأة امرأة ، فكانت هذه بيعتهن .)[1]

فإذا كانت هذه حال المرأة مع الرجال في لباسها وزينتها ، وفي خروجها ومشيتها ، وفي تعطرها ومصافحتها ؛ فهي تستتر عن أعين الرجال وتخفي عنهم فتنتها ، وتحيط نفسها بسياج منيع ليحفظ عليها أمنها وعفتها ، ويوفر لها عزها وكرامتها .

فإنها لن تكون أقل فتنة للرجال ، ولا ظلماً لهم ، إذا هي أطلقت العنان لندي صوتها ، مع المغنين والمغنيات ، في الإذاعة وعلى الشاشات ، فغنت للبنين والبنات ، وأطربت السادة والسيدات ، وفتنت المستمعين والمستمعات ، وأسكرت المشاهدين والمشاهدات ، تحت ستار الفن وخداع المسميات .

أجل ، لن تكون أقل فتنة في صوتها من ذلك كله ، لأن للصوت العذب الجميل فتنة وسحراً ، كما قال الشاعر :

أذني لبعض نساء الحي عاشقة ∴ والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وكما قال الشاعر الأعمى بشار بن برد :

وكأن تحت لسانها ∴ هاروت ينفث فيه سحرا

---

(١) طبقات ابن سعد : (ج٨ / ١٠ ، ١١)

وكأن رجع حديثها ∴ قطع الرياض كسين زهرا

فإذا كان الأمر كذلك في فتنة النساء ؛ فهل يكون الأمر مصادفة أن تتناغم صورة المرأة الجميلة الفاتنة ، مع صوتها العذب الأخاذ ، في حضرة الرجال بمناسبة وغير مناسبة ، حتى ليعتبر تخلفاً ورجعية أن تقام حفلة لا تعتمد على هذا اللون من الفن ، ولو عند البيئات المحافظة ؟ والأصل كما قلنا بين الجنسين هو الفصل .

قال الشاعر :

إن السلامة من سلمى وجارتها ∴ ألا تمر على حال بناديها

أجل ، إنه المخطط المدروس المتكامل لإفساد الأخلاق عن طريق المرأة .

جاء في « بروتوكولات صهيون » : (يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا . إن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس ، لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار أخلاقه .)[1]

وعلى هذا فإن المرأة المؤمنة المؤدبة المهذبة الواعية ، فوق أنها لا تظهر مفاتنها ، فإنها لا تطلق لمواهبها العنان في حضرة الرجال ، حتى لا تفتنهم بحسن صوتها ، وجرس موسيقاها ، كما أنها لا تخضع بالقول إذا اضطرت إلى محادثة الرجال ولو من وراء حجاب ، أو حتى من خلف سماعة الهاتف التي كثيراً ما استخدمت أداة للفساد والإفساد ، وبخاصة بعد أن صار هذا الهاتف جوالاً تحمله المرأة حيث شاءت ، كما يحمله الرجل ، ليكون التحدث من خلاله بعيداً عن الأعين والرقباء ، ثم لتكون الفتنة ، ويكون الفساد العريض .

قال الله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا

(١) نقلاً عن كتاب جاهلية القرن العشرين ١٦٩ .

﴿تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١)

جاء في « تفسير القرطبي » : (أمرهن الله أن يكون قولهن جزلاً ، وكلامهن فصلاً ، ولا يكون على وجه يظهر في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين ؛ كما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال بترخيم الصوت ولينه ؛ مثل كلام المربيات والمومسات .)(٢)

وغني عن البيان أن الأمر وإن كان لنساء النبي ﷺ ، فإن غيرهن أولى بهذا النهي لحاجتهن إليه .

جاء في كتاب « في ظلال القرآن » : (ومن هن اللواتي يحذرهن الله هذا التحذير ؛ إنهن أزواج النبي ﷺ وأمهات المؤمنين ، اللواتي لا يطمع فيهن طامع ، ولا يرف عليهن خاطر مريض ، فيما يبدو للعقل أول مرة ، وفي أي عهد يكون هذا التحذير ؟ في عهد النبي ﷺ ، وعهد الصفوة المختارة من البشرية في جميع الأعصار . ولكن الله الذي خلق الرجال والنساء يعلم أن في صوت المرأة حين تخضع بالقول ، وتترقق في اللفظ ، ما يثير الطمع في قلوب ، ويهيج الفتنة في قلوب . . .

فكيف بهذا المجتمع الذي نعيش اليوم فيه ، وتثور فيه الشهوات ، وترف فيه الأطماع ؟

كيف بنا في هذا المجتمع . . . ونساء يتخنثن في نبراتهن ، ويتميعن في أصواتهن ، ويجمعن كل فتنة الأنثى ، وكل هتاف الجنس ، وكل سعار الشهوة ، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات .)(٣)

وبعد هذا كله ، فإن المرأة المؤمنة المؤدبة المهذبة لن تطلق العنان

---

(١) من سورة الأحزاب : (الآية / ٣٢)
(٢) تفسير القرطبي : (ج١٤ / ١١٥)
(٣) في ظلال القرآن : (ج٥ / ٢٨٥٩)

لصوتها ، ولن تظهر مفاتنها ، وإنما ستقتدي بزوجات نبيها ﷺ ، ورضي عنهنّ ؛ وبخاصة في هذا الزمان الذي كثر شره وقلّ خيره ، وفسد أغلب رجاله وعامة نسائه ، بسبب الملهيات والمغريات ، وماجِنِ الصحف وخليع المجلات .

هل تُنكح المرأة لجمالها وهل يُرَدُّ خاطبُها ؟

لعل قائلاً يقول : مَنْ مِنَ العلماء جعل جمال المرأة شرطاً في زواجها ؟ صحيح أنه لا أحد من العلماء قال بذلك ، لكن واقعنا اليوم يثبت أن جمال المرأة شرط في زواجها عند أغلب الناس ؛ وهذا شأننا مع كثير من قضايانا الاجتماعية التي تأخذ طريقها بعيداً عن الضوابط الشرعية ، بحكم الفصل في الدين بين القضايا التعبدية وغيرها من القضايا الاجتماعية والفكرية والتربوية والمالية والعسكرية والسياسية و . . . . .

فلو نظرنا إلى تطلعات شبابنا اليوم ، وإلى تطلعات اللاتي يجلسن للبحث عن الخطيبة لكل من هؤلاء الشباب ، لوجدنا أن الجمال شرط أساس في ذلك ، ويمكن للشاب أن يضحي بكثير من الأمور ، لكنه لا يضحي بقضية الجمال ؛ وأي جمال هو ؟ إنه جمال الصورة المشرقة التي رسمها ذلك الخاطب في خياله لفتاة أحلامه ، والتي يقيس عليها كل مخطوبة جديدة ؛ فيقارنها بها ، ثم يرفضها لأنها لا تشبهها . إذ فتاة أحلامه : ممشوقة القد ، شقراء الشعر ، متدلية الخصال ، وردية الوجنتين ، حوراء العينين ، دقيقة الحاجبين ، رشيقة أنيقة ، تسيل رقة ودلالاً في حركتها ، وتتمايل كغصن بان في مشيتها ، وكأن الشمس تجري في محاسنها ، وكأن القمر يخجل أن يطلع بحضرتها ؛ فسبحان الذي صورها وأبدعها !

من أجل ذلك راح كثير من الشباب اليوم يبحث عن فتاة أحلامه ولو في غير بيئاته وبلدانه ، رغم الفوارق الاجتماعية التي كثيراً ما تسبب خلافات لا تحمد عقباها ؛ وما ذلك إلا لأنه لم يجد تلك التي يبحث عنها في بنات بلده ، فلعله يجدها هناك بعيداً عن أوطانه ، ولو أدى ذلك إلى بقاء كثير من بنات بلده دونما زواج ، لأنه إذا كان يزهد في بنات بلده لقلة حسنهن مثلاً ، فإن غيره أولى بذلك منه . فهو أنانيٌّ لا يفكر إلا في

نفسه ، وفي مصالحه ورغابه .

فكأن الخاطب من شباب اليوم يرى في نفسه أن ملكة الجمال في بنات المسلمين أو غير المسلمين ممَّن تحلُّ له شرعاً يجب أن تكون من حظه دون غيره ، لأنه أجدر بها من سواه ، أو لعله يتواضع فيتنازل عن بعض شروطه ، فيقول لأمه : المهم أن تكون مخطوبتي أجمل من كل زوجات إخوتي . مع أنه قد يكون أقلَّ من إخوانه علماً ، وكفاءة ، ومنزلة .

فسبحان الله العظيم ! متى كان الجمال شرطاً في الزواج إلى هذا الحد من الجنون ؟ لكن هذا كله ما كان ليكون ، لو لا ما يراه الشباب هنا وهناك من الصور الفاتنة المنمَّقة ، أو من التكشف والاختلاط ، أو غير ذلك من الفساد .

لكن الأمر عندما ينتهي بمثل هؤلاء الشباب المغرورين إلى الرضا بالواقع بعد الاصطدام به كحقيقة لا تقبل تلك الخيالات والأوهام . فإننا لا نكاد نسلم من أم مغرورة أيضاً ، تجد في ابنها المدلل أنه لا تليق به إلا فلانة أو فلانة ، من ذوات المنصب والجمال ؛ فهي تتعب نفسها حتى تشقى دونما جدوى ، لأنها تريد أن تحصل لابنها فتاة تباهي بها الدنيا ، وتفخر بجمالها على كل أقرانها ، ثم هي لا تأخذ بعدُ إلا نصيبها ، ولعلها ـ كما يقولون ـ تقع على رأسها ، والشواهد على ذلك كثيرة ، ولديَّ منها الكثير ، وأكتفي بالإشارة إلى واحدة منها .

حدثني شخص أعرفه عن واقع مؤلم ، وهو أن أولياء أمور البنات اليوم لم يعودوا يبحثون عن الرجل من خلال دينه وخلقه ، وإنما من خلال أمور ما أنزل الله بها من سلطان ، وهناك امرأة أعرفها ـ كما يقول ـ قد تعبت في البحث عن زوجة لابنها ، وهي لا تطلب في المخطوبة شرطاً سوى الدين لابنها المتدين ، لكنها كلما طَلبت رُدت ؛ فعجبت لذلك ، وقلت : هل لي أن أعرف تلك المرأة أو ابنها ؟ فقال : هي فلانة وابنها

فلان ، فلما عرفتها عجبت من أمرها ، ومن قدرتها على تزوير الحقائق ؛ وقلت لصاحبي : صاحبتك كذابة ، لأني بحمد الله كنت أعرف أحد البيوت التي طرقتها تلك الأم ، حيث كان فيها بنت تحمل شهادة جامعية ، وحافظة لكتاب الله عز وجل ، وهي على درجة عالية من التقوى والصلاح ، ونسبة من الجمال جيدة ، وهي من عائلة كريمة ؛ ومع أنها أصغر من الخاطب بحوالي عشر سنوات ، إلا أن الأم الخاطبة رفضتها ، وتعلق بصرها بالصغرى ، فراحت تلهث وراءها ، ولا تريد غيرها ، مع أن ولدها ليس كفئاً لهذه ولا لتلك ، فشهادته التي يحملها هي المتوسطة ، أو لعله لا يحملها ، وعقله هناك من يتحدث فيه . فهل نصدق تلك المرأة ومن على شاكلتها في دعواها ؟ أم أن علينا أن نتأكد من الأخبار قبل أن ننقلها ونروِّجها ؟ حتى لا يكون هناك طمس للحقائق ، ولا تزوير لها . مع أن البحث عن الجمال ليس حراماً ، وليس عيباً في حد ذاته ؛ لكنه إذا تحول إلى هوس أصبح ضاراً بصاحبه قبل غيره .

جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال . »[1]

نعم ، ليس العيب في البحث عن الجمال مع الخلق والدين .

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ∴ وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

لكن العيب عندما يقتصر البحث على ذات الجمال ، حتى يصير سمة بارزة في المجتمع ، بل ولدى الشباب المتدين ، ثم يكون بعده اتهام الناس في دينهم ، لمجرد أنهم قالوا : « لا » لمن دقَّ بابهم ، وطلبَ بنتهم ، وكأنه ليس من حق أي بيت أن يقول أهله تلك الكلمة ، وليس من حق أي بنت أن ترد خاطباً حتى ولو لم يكن كفئاً لها ، مادام قد أعجب بجمالها ، وأحب أن ينكحها ، وهو بزعمه صاحب خلق ودين ؛ فلماذا إذاً يُرد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١ / إيمان ، ص ٨٨ ، رقم ١٤٧)

عنها ويمنع منها ؟ والحديث صريح في تهديد من رد أو منع ، وهو قوله ﷺ : « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »(١)

وكأن هذا الحديث الشريف لم ينطق إلا باسمه ، و لم يتحدث إلا عن شخصه ، وواضح أن الرضا في الحديث الشريف عن خلق الرجل ودينه ، إنما هو من شأن البنت وأهلها ، وليس من شأن الخاطب بحال . ومن هنا يجيء الرد ، ويكون المنع .

فكما أن للرجل الحق في أن يتجول ويختار ، فإن للمرأة الحق في أن توافق أو ترفض ، وموافقتها مطلوبة ، ولا يجوز إكراهها على الزواج بمن لا ترغب ، لأن الحياة الزوجية لا تقوم إلا على الألفة والوداد .

قال رسول الله ﷺ : « لا تُنكح الأيِّم حتى تُستأمر ، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن ، قالوا : يا رسول الله وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت . »(٢)

نعم ، إن الرضا عن خُلق الرجل ودينه وسلوكه ، من حق البنت وأهلها . حتى وإن أُعجب الخاطب بجمالها ، وبذل ما وسعه من أجلها .

جاء في صحيح البخاري : « عن خنساء بنت خِدام الأنصارية أن أباها زوجها وهي ثيِّب ، فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ ، فردَّ نكاحها . »(٣)

وقال رسول الله ﷺ : « لا تنكحوهنَّ إلا بإذنهنَّ . »(٤)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن سبيعة الأسلمية بنت الحرث وضعت حملها بعد وفاة زوجها بعد خمس عشرة ليلة ، فدخل عليها أبو

---

(١) صحيح الجامع الصغير : (ج١ : ١١٢ ، رقم الحديث ٢٧٠) ، وابن ماجه : (نكاح / ٤٦)

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح – ٤١ ، رقم ٥١٣٦)

(٣) المرجع السابق : (ج٩ / كتاب النكاح – ٤٢ ، رقم ٥١٣٨)

(٤) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح خلا نهار العبدي وهو ثقة . مجمع الزوائد : (ج٤ / ٣١٠)

السنابل ، فقال كأنك تحدثين نفسك بالباءة ، مالك ذلك حتى ينقضي أبعد الأجلين . فانطلقت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بما قال أبو السنابل ، فقال رسول الله ﷺ : « كذب أبو السنابل ، إذا أتاك أحد ترضينه فائتي به ، أو قال : فائتيني . » وفي رواية أخرى عنه : « إذا أتاك كفء فائتيني ، أو ائتني به . »[1]

ظلموك أيتها الفتاة المؤمنة عندما بحثوا عن جمالك فحسب . فلما وجدوه حسبوا أنك سلعة يمكن لهم أن يشتروها ، ما داموا يملكون ثمنها ، وكأن الأموال وحدها كافية لتحقيق كفاءة الرجل لأية امرأة ، تلك الكفاءة المعتبرة عند أغلب الفقهاء .

جاء في « عون المعبود شرح سنن أبي داود » : (والكفاءة معتبرة في قول أكثر العلماء بأربعة أشياء : بالدين والحرية والنسب والصناعة . ومنهم من اعتبر فيها السلامة من العيوب ، واعتبر بعضهم اليسار ، فيكون جماعها ست خصال .)[2]

وجاء في « فتح الباري » : (واعتبر الكفاءة في النسب الجمهور ، وقال أبو حنيفة : قريش أكفاء بعضهم بعضاً ، والعرب كذلك ، وليس أحد من العرب كفئاً لقريش ، كما ليس أحد من غير العرب كفئاً للعرب . وهو وجه للشافعية . والصحيح تقديم بني هاشم والمطلب على غيرهم ، ومن عدا هؤلاء أكفاء بعضهم لبعض . وقال الثوري : إذا نكح المولى العربية يفسخ النكاح ، وبه قال أحمد في رواية ، وتوسط الشافعي ، فقال : ليس نكاح غير الأكفاء حراماً ، فأرد به النكاح ، وإنما هو تقصير بالمرأة والأولياء ، فإذا رضوا صح ، ويكون حقاً لهم تركوه ، فلو رضوا إلا واحداً فله فسخه . وذكر أن المعنى في اشتراط الولاية في النكاح كيلا

---

(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح . مجمع الزوائد : (ج٥ / ٥)

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود لشمس الحق العظيم آبادي مع شرح ابن القيم : (ج٦ / ١٢٩ ، ١٣٠)

تضيع المرأة نفسها في غير كفء .)[١]

إن للبنت وأهلها الحق في رد من يأتيهم يطلب بنتهم ، ولو كان على درجة عالية من الخلق والدين ، إذا رأوا عدم كفاءته ، ولو في سنه ، لأن فارق السن كثيراً ما يحرم البيوت من الألفة المطلوبة في الحياة الزوجية ومن السعادة فيها ، مع توفير كل أسباب الرفاهية والرخاء .

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : « خطب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فاطمة ، فقال رسول الله ﷺ : إنها صغيرة ، فخطبها علي فزوجها منه . »[٢]

جاء في الحاشية التعليق على الحديث في « سنن الترمذي » بشرح الحافظ السيوطي ــ رحمه الله ــ : (« فخطبها علي » أي عقب ذلك بلا مهلة ، كما تدل عليه الفاء ، فعلم أنه لاحظ الصغر بالنظر إليهما ، وما بقي ذاك بالنظر إلى علي ، فزوجها منه ، ففيه أن الموافقة في السن أو المقاربة مرعية ، لكونها أقرب إلى المؤالفة . نعم قد يترك ذاك لما هو أعلى منه ، كما في تزويج عائشة ــ رضي الله عنها ــ والله تعالى أعلم .)[٣]

إن الخاطب العاقل يبحث عن ذات الدين القويم ، والخلق الرفيع ، والتربية الفاضلة ، فإن وجد ذلك فهي سعادته ، وإن راح يلهث وراء الجمال ، أو المال ، أو المنصب فقط ، فقد أساء لنفسه قبل أن يسيء إلى غيره ، وخسر دنياه قبل آخرته .

قال رسول الله ﷺ : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، ولحسبها ، وجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك . »[٤]

---

(١) فتح الباري : (ج٩ / ١٣٢ ، ١٣٣) تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، ط دار الفكر .

(٢) سنن الترمذي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي : (ج٦ / كتاب النكاح ــ تزوج المرأة مثلها في السن ، ص : ٦٢)

(٣) المرجع نفسه .

(٤) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح ــ ١٥ ، رقم ٥٠٩٠)

وقال ﷺ : « لا تَزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تَزوجوهن لأموالهن . . ولكن تَزوجوهن على الدين . »[١]

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة عندما زهدوا في دينك وخلقك ، وفي علمك وطاعتك ، وفي تقواك وحسن تربيتك ؛ وتغنوا بجمالك فقط . حتى إذا تحدثوا عنك أثناء خطبتك فقالوا : فلانة أحسن من فلانة ، فإنهم لا يعنون إلا أنها أجمل ، ولا يخطر ببالهم أنك أكثر علماً ، أو أكثر حفظاً لكتاب الله تعالى ، أو أكثر طاعة وخلقاً ؛ بل يكفي عند تلك الأحسن أن تكون أوسع عيناً ، أو ألطف فماً ، أو أطول جيداً وقامة . فسبحان الله العظيم !

ومع أن الجمال مطلب فطري ، ومن لا يحب الجمال فهو فاسد الفطرة ، فاقد الذوق ؛ إلا أن هذا الحب للجمال يجب أن لا يطغى على ما هو الأهم في قضية الاختيار ، بل يجب أن يأخذ حجمه في تلك القضية ولا يتعداه .

ومن هنا فقد أبيح النظر حتى يرى كل من الخاطبين صاحبه ، ليكون ذلك أدعى للألفة والانسجام في مستقبل الحياة الزوجية وسعادتها .

عن سهل بن سعد الساعدي قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله جئت أهب لك نفسي ، فنظر إليها رسول الله ﷺ، فصعد النظر فيها وصوبه ، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئاً جلست ، فقام رجل من أصحابه ، فقال : يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها . . . »[٢]

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ ، قال : خطبت امرأة على عهد رسول الله ﷺ ، فقال النبي ﷺ : « أنظرت إليها ؟ قلت : لا ، قال : فانظر

---

(١) أخرجه ابن ماجه : (نكاح / ٦)

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج٩ / كتاب النكاح ، ص ٢١١ ، ٢١٢ ، رقم ٧٦)

إليها ، فإنه أجدر أن يؤدم بينكما . »[1]

ظلموك أيتها المرأة المؤمنة عندما حسبوا أن إباحة النظر إليك تعني أن يستمتعوا بهذا النظر كيفما شاؤوا ومتى شاؤوا ، حتى إذا شبعوا منك تحولوا إلى غيرك ، وكأن أعراض الناس مشاعة لهم يعبثون بها ثم يرمونها ، بعد أن يأخذوا حظهم الوافر منها ، وهم بذلك يزعمون أنهم في النظر المباح يتقلبون ، لكنهم في قرارة نفوسهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون .

فالنظر إنما أبيح لتحقيق المستقبل الأفضل ، وتوفير الألفة والسعادة للحياة الزوجية ، فهو يتم في البيوت ، وفي ظل ضوابطه الشرعية مع وجود من تؤمن معهم الفتنة ، ولا يجوز أن يكون بعيداً عن الرقباء ، ولو كان أصحابه من أتقى الأتقياء .

أما أنت أيتها الفتاة المؤمنة المؤدبة ، فحذار أن تبالغي في مطالبك ، فتردي كل صاحب خلق ودين ترضينه أنت لدينه وخلقه ، لأنه إن كان أقل مالاً أو جاهاً أو منزلة منك ، فلربما كان ذلك سبباً في سعادتك عند كريم النفس الذي لا يزداد إلا إعجاباً بك ، وتكريماً لتواضعك ، وحسن اختيارك ، مادام وصفه على الحال التي ذكرنا من أمره .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[2]

جاء في « تفسير ابن كثير » : (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح يُنْجِزْ لكم ما وعدكم من الغنى .)[3]

---

(١) سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي : (ج٦ / كتاب النكاح ــ إباحة النظر قبل التزويج ، ص : ٦٩)

(٢) من سورة النور : (الآيتان / ٣٢ ، ٣٣)

(٣) تفسير ابن كثير : (ج٣ : ٢٧٧)

وجاء في صحيح البخاري : « أن امرأة أتت النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها ، فقال : مالي اليوم في النساء من حاجة ، فقال رجل : يا رسول الله زوِّجنيها ، قال : ما عندك ؟ قال : ما عندي شيء . قال فما عندك من القرآن ؟ قال : كذا وكذا ، قال : فقد ملَّكْتُكَها بما معك من القرآن . »[1]

فالمال وغيره من الجاه العريض ، والحسب والنسب قد لا توفر جميعها السعادة للبيت ؛ بل قد تكون شؤماً على المرأة إذ تحمل صاحبها على الغطرسة والتكبر ، ونسيان كثير من الحقوق الزوجية .

ومع قلة المال والجاه ، فقد تغمر البيتَ السعادةُ بأحلى صورها ، فيهنأ برغد العيش وطيب المقام ، إذا وجدت الأخلاق الفاضلة ، والصفات الحميدة ، التي تشرق بالمعاملة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والبسمة الوادعة ، واللفتة الكريمة الحانية . اللهم إنا نسألك أن تلهمنا رشدنا ، وتحفظ علينا أعراضنا ، وتدخل الأنس والسرور على بيوتنا ، وجميع بيوت المسلمين ، آمين .

---

(١) صحيح البخاري مع الفتح : (ج٩ / كتاب النكاح – ٤٤ ، رقم ٥١٤١)

هل تتنكر المرأة لأهلها بعد زواجها ؟

كيف تتنكر المرأة لأهلها ؟ ولماذا تتنكر لأمها وأبيها ؟ إنها لقضية خطيرة تعصف بالبيوت فتؤلمها وتؤرقها ، تلك هي قضية المرأة عندما تنتقل من بيت أمها وأبيها إلى بيت زوجها ، لتكون بعد زواجها إحدى تلك النسوة اللاتي تُجمل حالاتهن بتلك الحالات الأربع :

١ ـ سعيدة مع زوجها وبيت حميها ، راضية مرضية عند أهلها وأمها وأبيها .

٢ ـ شقية كانت تنتظر مَن يحررها من تديُّن أهلها ، ومحافظة أمها وأبيها ، ومن تَخَلُّفِهم ورجعيَّتهم في نظرها ، فلما حظيت ببغيتها تنكَّرت لأهلها ، وتمردت على أمها وأبيها ، وهي تدَّعي أنها ما تفعل ذلك إلا طاعة لزوجها ، ومحافظة على عمارة بيتها وسعادته .

٣ ـ حائرة مترددة بين إرضاء أهلها وطاعة زوجها ، فهي إن أرضت أمها وأباها سخط عليها زوجها وآذاها ، وإن استسلمت لطاعة زوجها حرمها أن تكتحل عيناها برؤية أمها وأبيها ، أو أحد من أقاربها ، ومنعها أن تتتبَّع لهم أثراً أو تتسمَّع لهم خبراً ، لأنهم في نظره يعلِّمونها ما يفسد عليه طاعته وقِوامته .

٤ ـ مكرهة على الخضوع لزوجها ، صابرة محتسبة ، لا تريد أن تهدم بيتها ، وعليها أن تنسى أن لها أماً ربتها أو أباً قام برعايتها ، أو إخوة كانت تغمرهم بمودتها ، كما أن عليها ألا تذكر إلا اسم زوجها ، وألا يخطر ببالها سوى بعلها ، وألا تتغنى إلا بجماله ، ولا تتمدَّح إلا بفعاله ؛ والويل كل الويل لها إن زلَّ لسانها يوماً ، فذكرت أن لها أماً أو أباً أو أخاً أو أختاً أو قريباً ، لأن هذا يعني أنها امرأة ناشزة لا تحب زوجها ، ولا تطيع أوامره ، وما عليها عندئذ إلا أن تدفع الثمن ، وهو

مضارّتها ومضايقتها ، حتى تلحق بأهلها ، بعد أن ترد لزوجها كل ما أخذته من مهرها ، حتى ولو أنفقته جميعاً في سبيل زواجها .

هذه هي الحالات الأربع التي يمكن أن تكون عليها المرأة بعد زواجها ، فإذا استثنينا الحالة الأولى التي تسعد فيها المرأة بزوجها ، وببيت حميها ، وتُبقي على مودة أهلها ، ورضا أمها وأبيها ، وهي الحالة المثلى التي ننشدها ونتطلّع إليها . وكذا إذا استبعدنا الحالة الثانية التي تكون فيها المرأة شقية محرومة حين تتطلع إلى الخلاص من بيت أهلها ، والتحرر من تبعة التكاليف الشرعية ، والضوابط الخلقية التي أثقلت كاهلها ، حيث لا تهمنا تلك الحالة ، ولا يعنينا أمرها ، لأن حديثنا كان ولا زال عن المرأة المؤمنة المحجبة ، المؤدبة المهذبة . التي يؤلمنا ظلمها وقهرها ، وبخاصة إذا كان ذلك تحت ستار التدين كذباً وزوراً .

نعم ، إذا استثنينا هاتين الحالتين اللتين استقر أمر المرأة فيهما على ما استقر من خير أو شر ؛ فإننا عندئذ سوف نبقى أمام حالتين للمرأة تعيش في إحداها : حالة القلق والاضطراب ، لأنها حائرة مترددة لا تدري ما تصنع ، لتبقي على رضا أمها وأبيها مع المحافظة على ود زوجها وسعادة بيتها . كما تعيش في الثانية حالة القهر والكبت والإكراه ، التي فرضها عليها زوجها ، وأجبرها على قطيعة والديها ، ونسيان أهلها مادامت تريد استمرار الحياة الزوجية ، لأنها لا يمكن أن تبقى زوجة في كنفه ما لم تتقيد بتعليماته وأوامره ؛ فهي مغلوبة على أمرها صابرة محتسبة .

وهما حالتان تحمّلان المرأة المؤمنة من الأسى واللوعة ما الله به عليم ، كما أنهما تهددان البيوت بالخراب والدمار ، ما لم يتم إصلاح الأمر وفهمه على حقيقته على أساس من الموازنة الصحيحة والمنضبطة ، من قبل الأطراف المعنية ؛ كالزوج والزوجة ، وأهل كل منهما ، وذلك للإبقاء على

المودة بين الزوجين ، وعدم التفريط بحقوق الأهل ورضا الوالدين .

إن للزواج أهدافاً سامية تقف في طليعتها قضية تكثير النسل ، وتوسيع دائرة القربى والمعارف ؛ فالزواج الكريم هو ذلك الزواج الذي يتصل فيه الزوجان بأوثق روابط الود والرحمة ، فيكونان نواة لتواصل أوسع وأشمل يمتد ليضم كامل الأسرتين ، فيجعل منهما أسرة واحدة متميزة ، تتوطد بينها علائق الود ، حتى تغدو أسرة متآلفة متعاطفة متعاونة .

فإذا فقد الزواج ذلك المعنى السامي ، وتحول الزوج إلى ذئب مفترس بعد أن كان حَمَلاً وديعاً أثناء خطبته ، فحرم الزوجة من أهلها ، وقطعها عن أمها وأبيها ، حتى لا تراهم ولا يرونها ، واستعدى عليهم أهله وأقاربه ، ليوغر الصدور ، ويثير الفتن والأحقاد . فأي معنى تحقق بهذا الزواج ؟ أوليس من حقنا أن نقول والحالة هذه : ليته لم يكن ، وليت كلاً من الزوجين بقي في مكانه لا يعرف أحدهما صاحبه . إذاً لوفرنا على الأمة تلك الخصومات والنزاعات والأحقاد ، التي امتلأت بها الصدور بسبب هذا الزواج ومن أجله ؛ وخير لهذا الزواج الذي أوقع بين الأسرتين الفساد ، وتعذر معه الإصلاح ، خير له أن يتفرق صاحباه بالمعروف ، عسى أن يعود الود الذي فسد بين الأسرتين بعد التفريق بين الزوجين ، وإن كان ذلك القرار صعباً ، لكنه شر لا بد منه ، ولعله يجر على الأمة نفعاً ، عندما يكون رادعاً وزاجراً لأولئك الذين يظنون أن المرأة إذا تزوجت وقضى صاحبها وطره منها ، فإنها لن تجد بداً من الإذعان لكل مطالبه ، مهما كانت ظالمة وجائرة ، لأنها لن يكون أمامها خيار بعد ذلك ، إلا أن تذعن وتستكين ، فيتمادى في ظلمه وعدوانه ، حتى تعجز الجبال الراسيات عن تحمل تصرفاته وقبول عصيانه .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ

ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾(١)

وبناء على ذلك ، فإننا نقول للزوج الذي اختار زوجه لدينها وخلقها وحسن تربيتها : إذا كانت لديك بقية من دين أو خلق أو ضمير ، فإننا نناشدك باسم تلك البقية الصالحة أن ترحم تلك المؤمنة المؤدبة ، وتكف عن تلك المهذبة المعذبة ، فأنت لا تتعامل مع جماد ، ولا مع قط من خشب يصطاد ليطعمك لا ليأكل ؛ وإنما تتعامل مع مخلوق يمتلك حساً مرهفاً ، وعاطفة جياشة ؛ وإذا كانت المرأة في الغرب تتزوج فيتحول لقبها ليصير مثل لقب زوجها حتى تنسى معه أهلها ، وتذوب في أسرة زوجها ، فالأمر عندنا يختلف ، وإذا كانت المرأة تختار زوجها أحياناً هناك ، لتدفع له هي المهر بدلاً من أن يدفعه لها ، فالأمر عندنا يختلف أيضاً ، ويجب أن تعلم أيها الزوج المؤمن أنه لا حاجة لممارسة كل هذه الضغوط على الزوجة حتى تنسى أهلها ، وتعق أمها وأباها ، لأنها لن تستطيع إلى ذلك سبيلاً . إذ كيف تنسى تلك المؤمنة المؤدبة المهذبة أمها ؟ وهي التي أحسنت إليها وربتها ، حتى قدمتها لك على أحسن حال .

فهل هذا هو جزاؤها ؟ وهل هكذا يكون الوفاء ورد الجميل ؟

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾(٢)

أجل كيف تنسى المؤدبة أمها ؟ ولماذا تنسى المهذبة تلك التي ربتها ؟ وهي التي نزعت التمرة من فيها ، وكانت أحوج ما تكون إليها ، فأطعمتها إياها ، حتى ربتها وغذتها ، فلما صار أمرها إليك حرمتها أمها ومنعتها أباها ؛ فسبحان الله العظيم !

جاء في صحيح مسلم : « عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل

---

(١) من سورة البقرة : (الآية / ٢٣١)

(٢) من سورة الرحمن : (الآية / ٦٠)

واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها ، فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذي صنعت لرسول الله ﷺ ، فقال : إن الله قد أوجب لها الجنة ، أو أعتقها بها من النار . »(١)

وجاء في صحيح البخاري : « أن عائشة — رضي الله عنها — زوج النبي ﷺ حدثته قالت : جاءتني امرأة معها بنتان تسألني ، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ فحدثته ، فقال : من بلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كن له ستراً من النار . »(٢)

لقد كافأ رسول الله ﷺ الأبوين على حسن تأديبهما ورعايتهما لبنتيهما حتى بلغت ، فقدماها لك أيها الزوج لتعيش إلى جوارك آمنة مطمئنة ، كافأهما رسول الله ﷺ بأن يكونا من رفقائه في الجنة .

جاء في صحيح مسلم : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو » وضم أصابعه .(٣)

فبماذا كافأتهما أنت ؟ هل كافأتهما مقتدياً برسول الله ﷺ ، معترفاً بجهودهما ، مقراً بمعروفهما ؟ أم أنك كافأتهما بحرمانهما من فلذة كبدهما ، والإساءة إليهما ؟ ثم رحت تتغنى ببطولتك وشجاعتك ، وانتصارك عليهما ، ناسياً أو متناسياً جميلهما ، مباهياً ومفاخراً بإغضابهما .

فهل هكذا تكون البطولة ؟ وهل يقاس النصر على الأصدقاء بالنصر على الأعداء ، أم أنهما ليسا سواء ؟

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٦ / كتاب البر والصلة ، ص ١٧٩ ، رقم ١٤٨)

(٢) صحيح البخاري مع الفتح : (ج١٠ / كتاب الأدب — ١٨ ، رقم ٥٩٩٥)

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي : (ج١٦ / كتاب البر والصلة ، ص ١٨٠ ، رقم ١٤٨)

ظلموك أيتها المؤمنة المؤدبة عندما وهموا أن نسيانك لأهلك وأبويك يجلب لهم السعادة ، وأنه شيء يمكن تحقيقه بعد أن حفرت محبة والديك في قلبك ، دون أن تطغى على واجبات الزوج بعد زواجك ، أو أن تؤثر على محبته وطاعته ؛ إذ لكل محبة مجالها وطريقها .

لذا فلا يمكن أن تنسى البنت فضل والديها عليها ، بعد أن قرن الله سبحانه برهما بعبوديته له ، فقال : ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1]

أجل ! كيف يطلب من الزوجة أن تتنكر لأهلها ، وتنسى أمها ، وقد قرأت عن حنان الأم وشفقتها ما تنشق له الأرض ، وتخر له الجبال هدا ، وقد صور الشاعر ذلك الموقف المؤثر أحسن تصوير عندما قال :

أغرى امرؤ يوماً غلاماً جاهلاً ∴ بنقوده كيما ينال به الوطر
قال ائتني بفؤاد أمك يا فتى ∴ ولك الدراهم والجواهر والدرر
فمضى وأغمد خنجراً في صدرها ∴ والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى ∴ فتعفر القلب الممزق إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو معفر ∴ ولدي حبيبي هل أصابك من ضرر ؟

فالبنت المؤمنة المهذبة هي التي تعرف لكل ذي حق حقه ، فتطيع بالمعروف زوجها ، وترعى بالإحسان بيتها ، وتبر أمها وأباها . فأمها روحها التي تفديها ، ولسان حالها يقول وفاء بتلك الأمومة الحانية :

أحب الناس لي أمي ∴ ومن بالروح تفديني

---

(١) من سورة الإسراء : (الآيتان / ٢٣ ، ٢٤)

فكم من ليلة قامت ∴ على مهدي تغطيني
بصوت ناعم عذب ∴ وإنشاد تغنيني
تخاف علي من برد ∴ ومن حر فتحميني
بروحي سوف أفديها ∴ كما بالروح تفديني
وأسعى في هناءتها ∴ كما تسعى لترضيني

أما أبوها ، فهو عندها في تلك المنزلة الرفيعة التي يجب أن تكون للآباء ، فهي لا تنسى فضله وإحسانه ، ولسان حالها يقول :

كم يا أبي لك من يد ∴ عندي وكم لك من أثر !
أنت الذي ربيتني ∴ ورعيتني منذ الصغر
وأفدتني العلم الذي ∴ هو كنز مالي المدخر
هذي عوارفك الحسا ∴ ن وتلك أياديك الغرر
هي يا أبي دين علي ∴ ي أرده عند الكبر

فماذا يضرك أيها الزوج المؤمن لو عاملت زوجك بالحسنى ، فأكرمتها وأكرمت أهلها من أجلها ، فكافأت والديها على أقل تقدير بما يستحقانه كما تكافئ أي صاحب معروف وفضل عليك ، فكيف بمن قدما لك فلذة كبدهما ؟ تلك الجوهرة الثمينة التي تفخر بها وتعتز ، ولولاهما لما كان لك ذلك ، ولو لا تربيتهما الصالحة ، وتنشئتهما الفاضلة ، لكان لك شأن آخر في زواجك ؛ ولو تذكرت أنهما هما اللذان وافقا عليك ، فجعلا منك زوجاً لابنتهما ، وذلك عندما حسنا الظن بك بعد أن سمعا عن دينك وحسن خلقك وكريم سجاياك . لو تذكرت ذلك لعلمت أن ثاني إنسانين في الدنيا بعد أمك وأبيك أنت عاجز عن شكرهما ورد جميلهما إنما هما والدا زوجك اللذان قلداك وسام الزوجية ، ولو لا موافقتهما عليك زوجاً لكان موقعك منهما ومن

بنتهما غير ما أنت عليه من الفضل والنعمة . فكيف نسيت ذلك كله ؟ وكيف أبحت لنفسك محاربتهما بسلاح ملكاك إياه ، وهما بمنزلة والديك ؟ بل وأكثر من ذلك ربما كانا من أهل العلم والفضل ، والناس يستفيدون من نصائحهما وإرشاداتهما وتجاربهما ؛ ولعلك أحوج إلى هذا كله من هؤلاء جميعاً . لكنها لوثة النفس الخبيثة ، والنزعة الشيطانية نعوذ بالله من ذلك .

وخالف النفس والشيطان واعصهما ∴ وإن هما محضاك النصح فاتهمِ

أجل ، ماذا يضرك أيها الزوج المؤمن لو أحسنت إلى زوجك وأكرمت أهلها من أجلها وبخاصة أبويها على أقل تقدير ، وقد كانا يرجوان أن يخرج الله منكما النسل الطيب المبارك في ظل الألفة والمحبة التي تغمركما ، كما كانا يؤمِّلان أن تنتشر تلك الألفة والمحبة لتزداد ثراءً ونماءً في أسرتيكما الكريمتين على امتداد الزمان ، لا أن تُطعن في مهدها بخنجر مسموم ، لتموت تلك الآمال الحلوة والطموحات العذبة ، ثم لتدعي بعدها أنك ما فعلت شيئاً تلام عليه ، لأنك إنما تتحكم في زوجة هي زوجك ، ولا دخل لأحد في شأنها ، حتى نفسها التي بين جنبيها ، فإنها ما عليها إلا أن توطنها على طاعتك وعبوديتك في كل ما تأمرها به وتنهاها عنه ، سواء أكان منكراً أم معروفاً ، ليحصل لها رضاك ، وتسعد في جوارك وحماك .

فهل بهذا الإضرار بزوجك ، وهل بهذا التنكر لأهلها وأمها وأبيها يكون الإحسان ويكون الوفاء ؟ وهل بهذه المواقف الشائنة تتحقق سعادة البيت الذي يقوم على الألفة والرحمة والمودة ؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون .

أجل ، ماذا يضرك أيها الزوج المؤمن لو فعلت ، فأدخلت السرور على قلب زوجك ، ومتَّعت أهلها بالنظر إليها ، والاطمئنان على سلامتها وسعادتها ومستقبلها ، لتثلج بذلك صدورهم ، فيكون هذا منك رداً

لبعض الجميل الذي أسدياه إليك ؟ !

أما أنت يا أيتها المؤمنة المحجبة ، المهذبة المؤدبة ، يا من كان الحديث من أجلك وبسببك ، فإننا نرجو منك أن تعلمي كذلك ، أنك قد صرت بعد زواجك ربة بيت ، وراعية أسرة ، وأصبحتْ لك واجبات لم تكن بالأمس ، بعد أن كنت إلى عهد قريب تنعمين بدفء الحنان والعطف يغمرك من أبويك ، فلا تشعرين بالمسؤولية إلى جوارهما ، لأنهما كانا يكفيانك إياها ، ولعلهما كانا يؤثران راحتك ودراستك على مطالبتك بما يتوجب عليك ، لكنك اليوم وقد صرت زوجاً ، فإنك تحتاجين إلى أن توازني بين رغاب زوجك ، ومطالب بيتك ، وإرضاء والديك ، وإنها لموازنة دقيقة وصعبة ، تحتاج منك إلى أن تستعملي عقلك وحكمتك التي نعرفها فيك . وحذار أن تظلمي أحداً على حساب أحد ؛ نعم حذار أن تظلمي زوجك ، وتهملي بيتك ، بسبب تعلقك الزائد بأهلك وأبويك ، كما أننا نحذرك أشد الحذر من أن تستأثري بزوجك فتستعمريه ، وتمنعيه من أمه وأبيه ، وأنت تعرفين أن له أماً سهرت من أجله الليالي حتى ربته صغيراً ، وهي تريد أن لا تفقده كبيراً ، كما تعرفين أن له أباً بذل له من مقلته ، وأنفق جُلَّ ماله ووقته في سبيل تربيته وسعادته ، فلما دق عظمه ، وأحنت الشيخوخة ظهره ، وأصبح أحوج ما يكون إلى من رباه حرمتيه إياه .

أيتها المؤمنة المؤدبة ، كوني عوناً لزوجك على بر والديه ، ولا تكوني عوناً للشيطان عليه ، في قطيعة أبويه .

أيتها المؤمنة المهذبة ، إنك تتعاملين اليوم مع بيت جديد يتطلب منك أن تحسني إلى زوجك ، وأن تعاملي أمه وأباه كما تحبين أن يعامل أمك وأباك ، وأن تنظري إلى أخواته وعماته وخالاته ، بالعين نفسها التي تحبين أن ينظر إلى أهلك وكل أقاربك ، وبهذا تستطيعين أن تملكي قلب

زوجك ، وتستحلبي عطف أمه وأبيه ، وكل أقاربه وذويه ، ولعل دعوة صالحة من والديه تكون سبب سعادتكما وغناكما ، وغنى وسعادة أبنائكما ، لأن دعوة الوالدين للأبناء مستجابة . فحذار أن تقصري في ذلك ، وأنت أهل لكل ذلك .

نسأل الله لكِ أن يرزقكِ السداد والرشاد ، وأن يسعدك في الدنيا والآخرة ، إنه سميع مجيب .

هل تتوظف المرأة وتستقلُّ براتبها ؟

إن أخطر قضية تهدد البيوتات المثقفة اليوم ، قضية عمل المرأة خارج بيتها ، إذ تفجِّر تلك القضية مشكلات ما كان للبيت أن يعرفها لولاها ، سواء أكانت الرغبة في العمل من المرأة أو من الرجل .

فإذا كانت المرأة هي التي رغبت في العمل خارج بيتها ، لتأمين حاجاتها ومتطلباتها ، أو لشعورها بالمسؤولية في المجتمع وسد ثغرة فيه ، أو كان لهدف قضايا دعوية أو خِدمات إنسانية ؛ فإن ذلك كله يثير حفيظة الرجل بشكل أو بآخر ، ويجعله يترقب أي ثغرة ، ويتصيّد أي هفوة ، ليجعل من الحبة قبة كما يقولون ، فتقوم الخصومات التي تمزِّق البيت ، أو تُشعِل نار الفتنة فيه ، فتكون سبباً في إحراق البيوت وتدميرها ، وضياع الأسرة بأكملها .

أما إذا كان الرجل هو صاحب الرغبة في عمل زوجه ، لتقف إلى جانبه ، وتتحمل تكاليف الحياة الصعبة معه ؛ فإن ذلك سوف يفجر لدى المرأة كثيراً من أسباب الضجر والسآمة ، حتى لتراها تتذمر لأتفه الأسباب ، ولعلها تنفجر غاضبة في وجه زوجها مدفوعة إلى ذلك من غير إرادتها ، أو لعلها تصرخ في وجه طفلها البريء ، فتدفعه أو تلطمه رغماً عنها ، وقد اقترب منها ليستدفئ بأحضانها وينعم بحنانها ، بعد أن طال غيابه عنها ، وازداد شوقه إليها ، فإذا بها تغيب بسمة الأمل في ثغره ، وتطبع صورة اليأس والإحباط على جبينه ، فيرتد خاسئاً وهو حسير . فإذا كانت هذه حالة ربة البيت ، فماذا عسى أن يكون ذلك البيت ؟

لكنه لا بد من التنبيه هنا إلى أن الحديث عن البيت الذي تعمل المرأة خارجه هو حديث عن الأعم الأغلب ؛ لأن هناك حالات تعمل فيها المرأة خارج البيت ، والبيت هادئ مستقر ، والتربية في البيت أفضل من غيرها

بكثير .

من ذلك أنني بدأت حياتي الزوجية مع زوجة مدرِّسة ، لا أذكر أنه كان لتدريسها سبب في إهمال بيتها ، سوى أنني كنت أشفق على جهدها المضاعف داخل البيت وخارجه ، فكانت خير عون لي على تربية الأولاد ذكوراً وإناثاً ، حتى كانوا جميعاً بحمد الله من الأوائل في دراستهم إلى تخرج بعضهم في الجامعات ، مع حفظهم جميعاً لكتاب الله عز وجل ، وبعضهم جمع قراءاته السبع إلا أصغرهم ، فإنه في طريقه لذلك بعون الله .

وقد دفعني الوفاء لزوجتي حين كان تعيينها مدرِّسة لفترة قصيرة بعيداً عني أن أقول قصيدة مطلعها :

يا ليالي الأنس عودي ∴ فالدنا أضحت ظلاما

كما دفعني حبي لأسرتي أن أضمِّن أسماءهم جميعاً في عناوين كتبي الثمانية التي بدأت بها مؤلفاتي مكافأة لهم على تفوقهم وبرهم سائلاً المولى سبحانه أن يحفظ على المسلمين أُسَرهم ، وأن يوفق لمزيد من الخير والعطاء أبناءهم ، إنه أكرم مسؤول وأفضل مجيب .

لكنْ تبقى هذه الصورة المشرقة نموذجاً فريداً ، لا يمكن أن تقاس عليه جميع الحالات .

إن رعاية الأم لبيتها ، وتنشئتها لأبنائها على مكارم الأخلاق ، لهي أفضل طريق لتقديم النماذج المثالية الفاعلة للأمة لبناء غدها المشرق ، ومستقبلها السعيد ؛ وهذه الرعاية للبيت لا تتم على وجهها الصحيح إذا كانت المرأة تقضي جلَّ وقتها في العمل خارجه .

لكن هذا لا يعني أن تُمنع المرأة مطلقاً من القيام بمسؤوليات إضافية عندما تمتلك طاقات نادرة ، يمكن لها أن تسهم في تقديم النافع والمفيد لهذه الأمة ، مادام ذلك يتناسب مع أنوثتها ، وواجباتها المنزلية والتربوية ،

ولا يخرج عن الضوابط الشرعية . لكن يبقى الأصل في عمل المرأة بيتها الذي هو المصنع لرجال الغد المأمول ، ونساء المستقبل الواعد .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾[1]

نعم ، هذا هو الأصل ، وما عداه فهو الاستثناء الذي لا بد له من ضوابطه ، وذلك منعاً للفساد والإفساد ، وأمناً للفتنة والاضطراب .

ومهما قيل في معنى ﴿ وَقَرْنَ ﴾ بسبب الاختلاف في قراءتها : ﴿ وقرن ﴾ أو ﴿ وقرن ﴾ أو في أصل مادتها : وقر ، أو قرَّ ، أو قار ، بحيث يكون معناها من الوقار ، أو من القرار ، أو من الاجتماع الذي منه القارة ، أو من قرة العين وسرورها ؛ فإن تلك المعاني على اختلافها على كل حال إنما يجب توفرها في ظل البيت : ﴿ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ مما يدل على أن الأصل في المرأة أن يكون قرارها في بيتها ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذي لا مانع منه على اعتبار أن الأمر على العموم في هذه الآية لأنها حملت بنفسها إشارة إلى هذا الخصوص ، عندما تحدثت عن التبرج الممنوع للمرأة ، ومعلوم أن التبرج إنما يكون خارج البيت ؛ فهناك إذن خروج ، لكنه ليس فيه تبرج الجاهلية ، وإنما هو منضبط بضوابطه الشرعية .

جاء في « تفسير الماوردي » : « ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ قرئت على وجهين : أحدهما بفتح القاف ، قرأها نافع وعاصم ، وتأويلها اقررن في بيوتكن من القرار في المكان . الثانية : بكسر القاف ، قرأها الباقون . وتأويلها كن أهل وقار وسكينة . »[2]

وجاء في « تفسير المحرَّر الوجيز » : (قرأ الجمهور ﴿ وقِرن ﴾ بكسر القاف ، وقرأ عاصم ونافع ﴿ وقَرن ﴾ بالفتح . . . قالوا : وإنما يقال :

---

(١) من سورة الأحزاب : (الآية / ٣٣)

(٢) تفسير الماوردي : (ج٤ / ٣٩٩)

قرِرْت بكسر الراء من قرت العين ، وأما من القرار فإنما هو من قَرَرْت بفتح الراء .)[1]

وجاء في « مختار الصحاح » : (أقر الله عينه أي أعطاه حتى تقر ، فلا تطمح إلى من هو فوقه ، ويقال حتى تبرد ولا تسخن ، فللسرور دمعة باردة ، وللحزن دمعة حارة .)[2]

فالمرأة المؤمنة على أحد المعاني مأمورة أن تقر عينها بزوجها ، فلا تطمح إلى من هو فوقه ، وهو معنى لطيف جدير بالوقوف عنده والتأمل فيه ، ولعله يغنينا عن قول القائل : إن الخطاب في الآية متوجه أصلاً لنساء النبي ﷺ ، ولا يشمل غيرهن ، فهذا كلام يرده كلام مشاهير علماء التفسير .

جاء في تفسير « الجامع لأحكام القرآن » : (معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النبيﷺ ، فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى .)[3]

وجاء في تفسير « روح المعاني » : (والمراد على جميع القراءات أمْرُهن رضي الله تعالى عنهن بملازمة البيوت ، وهو أمر مطلوب من سائر النساء .)[4]

وعلى هذا فإنه ليس بوسعنا أمام هذه القضية أن نضرب بآراء كبار علماء الأمة ، لنقرر خروج المرأة من بيتها ، والقضية تجد حلها في غير هذا الإطار ، على اعتبار أن الأمر في الآية نفسها فيه إشارة إلى الخروج ما تتبرج المرأة في خروجها تبرج الجاهلية الأولى . أو أن ﴿ وقرن ﴾ على معنى قُرة العين ، بمعنى أن على المرأة أن تقر عينها بزوجها في بيتها ، فلا تطمح ولا تتطلّع إلى من هو فوقه في مال أو جاه أو غير ذلك . فالآية

---

(١) القاضي ابن عطية الأندلسي : (ج٤ / ٣٨٣)

(٢) مختار الصحاح / قرّ ، ص ٥٢٨ .

(٣) القرطبي : (ج١٤ / ١١٧)

(٤) الألوسي : (ج٢٢ / ٦)

الكريمة ليست قطعية الدلالة على لزوم البيت مطلقاً نظراً للاختلاف في قراءة ﴿ وقرن ﴾ ، ولاختلاف مادتها .

لكنْ مهما يكن من أمر ، فإن خروج المرأة من بيتها يبقى هو الاستثناء لا الأصل ، وذلك إذا نظرنا إلى مجمل النصوص التي تحدثت عن تلك القضية ، و لم نكتف بهذا النص وحده .

جاء في تفسير « المحرَّر الوجيز » : (وذُكر أن سَوْدة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ، قيل لها : لِمَ لا تحجين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك ، فقالت : قد حججت واعتمرت ، وأمرني الله تعالى أن أقر في بيتي . قال الراوي : فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى خرجت جنازتها .)[1]

وعن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنهما ـ أنها جاءت النبي ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إني أحب الصلاة معك ، قال : قد علمت أنك تحبين الصلاة معي ، وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير لك من صلاتك في مسجدي . قالت : فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت في بيتها وأظلمه ، فكانت تصلي فيه حتى لقيت الله عز وجل . »[2]

فالأصل في المرأة قرارها في بيتها ، لكن هذا الأصل لا يمنع أن يكون الاستثناء للخروج في ظل ضوابطه الشرعية ، سواء أكان ذلك لضرورة أم لحاجة ملحة ، أم لاعتبارات كثيرة فرضتها لغة العصر في تعليم الإناث تعلماً وتعليماً في المدارس أو الجامعات ، أو كان ذلك لتعمل المرأة العمل الذي يتناسب مع أنوثتها وفي ظل بيئتها ، لتسد ثغرة لا يسدها غيرها .

---

(١) القاضي ابن عطية الأندلسي : (ج٤ / ٣٨٣)

(٢) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن سويد الأنصاري وثقه ابن حبان . مجمع الزوائد : (ج٢ / ٣٧)

فالمرأة تخرج لتتعلم ، ثم لتكون المدرسة ، أو الممرضة ، أو الطبيبة أو القابلة ، أو طبيبة الأسنان ، أو ما أشبه ذلك مما لا يتنافى مع أنوثتها وطبيعتها . لكن إذا كان عملها في المشافي ، فليعلم أنه يجب أن يكون مقصوراً على النساء دون الرجال ، وكذا في عالم التدريس في كل مراحله أيضاً ، لما في الاختلاط من أضرار لا تخفى على كل ذي بصيرة .

فإذا كان خروج المرأة لحاجة أو ضرورة ، فإنها كيف تخرج وكيف تكون أثناء عملها ؟ هل تخرج متزينة متعطرة ، لتعمل مع الرجال على أحسن هيئتها ، كاشفة عن وجهها وساعديها ، وعن مقدم رأسها ، وعن جزء مهم من صدرها ، وعن حليها وزينتها ، بحجة أن ذلك كله من طبيعة عملها ؟ أو أنها تترسل مع الرجال في حديثها ، وكأنها تتحدث مع بنات جنسها ، أو ترسل ضحكاتها ، وتوزع ابتساماتها ، وكأنها في بيتها أو عند زوجها أو أمها وأبيها ؟ ! فسبحان الله العظيم !

هل هكذا يكون خروج المرأة من بيتها ؟ نعوذ بالله أن يقول بهذا عاقل غيور . فالضوابط قاسية وقليل من النسوة يقدرن على الوفاء بها وبالتزاماتها ! حيث لا للاختلاط بالرجال ، لا للتجمل بالحجاب ، لا لإظهار الزينة ، لا للمشية المائلة ، لا للتعطر ، لا للتحدث مع الرجال إلا من وراء حجاب ، لا للخضوع بالقول ولو من وراء حجاب ، أو من وراء سماعة الهاتف . وأمام هذه اللاءات جميعها يمكن للمرأة عندها وللمجتمع من حولها أن يقر قضية الخروج للمرأة . وخير للمرأة ألف مرة أن تلزم بيتها على أن تكون أداة فساد أو إفساد لأمة بأكملها ، بحجة أنها تريد أن تقوم بواجبها ، وتؤدي وظيفتها .

وأخيراً ، فإنه إذا أبيح للمرأة أن تتوظف في ضوء هذه اللاءات ، فوافقت على أن تعمل ، ورضي بذلك زوجها ، فإن هذا العمل يثير قضية مرتبها ، فماذا عنه ؟ هل هو من حقها وحدها ؟ أم أن لزوجها الحق في

مشاركتها مادام قد تنازل عن بعض حقوقه تجاهها ؟

تلك القضية تحتاج منا أن نقف عندها لننصفها ، ونحن نعترف ابتداء أنه ليس لدينا نص قطعي الثبوت والدلالة يفصل في تلك القضية ، مع أنه معلوم أن مال المرأة لو بلغ القناطير المقنطرة ، فهي غير ملزمة بالنفقة على نفسها أو على بيت زوجها وأولادها ، وهي حرة التصرف في مالها .

فهل راتبها الذي تتقاضاه في ظل الحياة الزوجية بسبب عملها خارج بيتها ، والذي ينعكس على البيت بشكل أو بآخر فيشكل فيه فراغاً ، حتى ولو كان فراغاً معنوياً ؛ هل هذا الراتب هو من هذا القبيل الذي لا دخل لأحد فيه ، أم أنه شيء آخر ؟

إنني أميل إلى أنه شيء آخر ، ويجب أن يفرق بين ما يكون للمرأة من مال جاءها عن طريق الإرث مثلاً ، وبين ما تكسبه المرأة في ظل زوجها ، وعلى حسابه وحساب راحته وتربية أولاده في الغالب الأعم . فلا بد أن يقوم الأمر في هذه القضية على التفاهم والتسامح ، وليس أن تستأثر المرأة براتبها ، لتنفقه على ألبستها ، وأدوات زينتها ، وقصات شعرها ، ثم لتلزم زوجها بعد ذلك بالخادمة أيضاً في بيتها ، ما دامت لا تجد وقتاً لتلك الخدمة ؛ كما أنه لا يجوز للرجل أن يطالب المرأة بكل مرتبها بحجة أنه هو الذي سمح لها بالعمل ، ولولا سماحه لها لقعدت في بيتها ، إذن فأين يذهب تعبها ؟

نعم ، ليس هذا ولا ذاك ، وليست هنالك نسبة يمكن أن تفرض في هذه القضية ، بقدر ما يجب أن يعرف كل من الزوجين بأنهما شريكان في الحياة ، وكل منهما لباس لصاحبه ، فهما يعملان من أجل إسعاد البيت الذي يضمهما معاً ، ولا حاجة في قضية الراتب أن تكون الحسابات دقيقة وصعبة ، وإنما ينبغي أن تقوم على الصفاء والمسامحة .

مع أنني أقترح أن تخفف ساعات العمل عن المرأة خارج بيتها إلى نصف ساعات عمل الرجل ، وذلك كي تتمكن المرأة من التوفيق بين

عملها داخل البيت ووظيفتها خارجه ، حتى ولو تأثر بذلك مرتبها ، فصار نصف مرتب الرجل ؛ لكن هذا يوفر الصحة لنسائنا ، ويبقي على سلامة بيوتنا التي يهددها فراغها من المرأة بالخراب والدمار ، لأن المرأة مع ساعات العمل الطويلة خارج بيتها لا يبقى لها وقت تتفرغ فيه لبيتها وأولادها ، فلا بد للمجتمع من حولها أن يرحمها ، فيوفر لها بعضاً من ساعات عملها خارج بيتها ، لتبذلها في خدمة بيتها وتربية أبنائها .

ثم إنه من ناحية أخرى إذا كان راتب المرأة مساوياً لراتب زوجها ، وكان عليه أن يدفع لها مهرها ، ويؤمن سكنها ، وينفق عليها ، إضافة إلى ما يدفعه كثير من شباب أمتنا في كثير من بلدان المسلمين بدلاً عن الخدمة الإلزامية « الجندية الإجبارية » ليتخلص منها .

فهل يعقل أن يطالب الرجل بكل تلك النفقات وهي تعد بمئات الألوف في هذا العصر أو بالملايين في بعض البلدان ؟ ثم يبقى راتب الزوجة خالصاً لها مع ما يلحقه عملها من خسارة للبيت لا يمكن تجاهلها ؟ لكن على كل حال فإن المرأة المؤمنة المؤدبة الواعية لا تجعل من موضوع مرتبها مشكلة تهدد بيتها ، لأنها تدرك مالها وما عليها ، وفي طبيعة الحال فإن زوجها المؤمن لن يظلمها مالها ولن يهضمها حقها ، وإنما سوف يخصها بما يتناسب مع جهودها وأتعابها ، فيحفظ لها ذلك كله ، في إطار الألفة التي تغمر البيت ، والرحمة التي يعبق شذاها بين الزوجين ، والحب الذي تقوم عليه تلك العلاقة الزوجية ، وبذا تتكون الأسرة التي تكون دعامة حقيقية لبناء مجتمعنا وتحقيق أهدافه .

المحتوى

الموضوع..الصفحة

المقدمة ٥

هل المرأة أكثر أهل الجنة ؟ ١٧

هل على المرأة في القوامة من مهانة ؟ ٢٢

هل درجة الرجال على النساء للتكليف لا للتشريف ؟ ٢٨

هل الحرية للمرأة تطغيها ؟ ٣٧

هل التعليم للمرأة يغويها ؟ ٥٠

هل لناقصات العقل والدين رأي يسمع ؟ ٦٠

هل ضرب المرأة مكرمة ؟ ٧٥

هل تطلق المرأة مواهبها وتظهر مفاتنها ؟ ٨٦

هل تنكح المرأة لجمالها وهل يرد خاطبها ؟ ٩٩

هل تتنكر المرأة لأهنها بعد زواجها ؟ ١٠٨

هل تتوظف المرأة وتستقل براتبها؟.......................... ١١٨

صدر للمؤلف

تحت عنوان سلسلة مجتمع الإيمان

١ ــ وا أخوتاه ! !

حنين يردد الفؤاد صداه

٢ ــ رفيف المنى

يوم تغدو كالجسد أمتنا

٣ ــ رياض أنسنا

في زهراء حبنا

٤ ــ في ظلال رحمتنا

نمضي لغايتنا

٥ ــ عطفنا الحازم

أملنا لغد باسم / القسم الأول

٦ ــ عطفنا الحازم

أملنا لغد باسم / القسم الثاني

٧ ــ هذه شعائر ديننا

مصدر عزنا وإخائنا ورضوان ربنا

٨ ــ سبعون حقا للأخوة

لسعد الأجيال الصاعدة وبلال الآمال الواعدة

هذا الكتاب

ما زال الحديث عن المرأة وحقوقها وحريتها وتعليمها وعملها، وعن صوتها ولباسها، ورياضتها وجهادها، وعن زواجها المبكر أو عنوستها، وغير ذلك من شؤونها، ما زال يشغل الأدباء والشعراء، والمفكرين والفقهاء، فيأخذ حيّزاً كبيراً من اهتماماتهم، في الصحف والمجلات، والكتب والمقالات، والتمثيليات والمسرحيات، وفي برامج التلفزة والإذاعات.

ومع هذا كله لا تزال قضية المرأة من أخطر القضايا التي يستوجب تأملها والوقوف عندها، لتجلية حقيقة ظلم المرأة، سواء أكان ذلك في ظلمها من قبل الرجل، أم كان في ظلمها هي للرجل، وذلك بكل دقة وأمانة، بعيداً عن نغمات الجهلة والمتخلفين، وعن نغمات الإباحيين دعاة التحرر من أي قيد أخلاقي أو ديني، فكان لا بد من موقف مشرِّف، ورأي واضح يزيل اللّبس، ويرفع الغموض، في ظل الضوابط الشرعية، والمعايير الخلقية.

وهذا الكتاب إسهام متواضع في هذا الباب عسى أن ينفع الله به، وهو ولي التوفيق.